الطبعة الثانية 2

رواية

عفار

حياة الياقوت

عَفَار

(رواية)

حياة الياقوت

الطبعة الأولى: ١٤٣٧ هـ، ٢٠١٦ م. ردمك: ٥-١١٥-١-٩٩٩٦٦-٩٧٨
الطبعة الثانية: ١٤٤٥ هـ.، ٢٠٢٣ م. ردمك: ٥-٢٨٨٠-٠-٩٩٢١-٩٧٨
الطبعة الثانية (إلكترونية): ١٤٤٦ هـ.، ٢٠٢٥ م.

©جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة.
يمنع نسخ أو نشر أو استعمال أو تخزين واسترجاع هذا الكتاب أو أية أجزاء منه بأية وسيلة كانت إلا بموافقة كتابية مسبقة من المؤلّفة.

ملاحظة:
تحتوي هذه النسخة الإلكترونية من الكتاب على بعض الصفحات الفارغة، وهذا كي تطابق صفحات النسخة الورقية للكتاب.

المحتويات

إهداء..... ١

توطئة ٣

افتتاح..... ٥

ذاتَ انبلاج..... ٧

غِمار..... ٦٩

انهمار.....١٢٧

فرار..... ١٦٣

زمان الفيض..... ١٩١

إهداء

إلى كوكبي الدريّ، أمي دُريّة العماني،

كيف يحدث أن أكتب رواية جديدة دون أن أضعها بين يديك؟

أشتاقُ إليك بحجم الحب، أفتقدك بحجم الوجع.

توطئة

تتعدّد النظريات حول أصل تسمية **إفريقيا**. وترى إحدى النظريات أنّ اسمها عائد إلى كلمة «**أفار**» الفينيقية والتي تعني **غبار**.

لا تبدو هذه الكلمة بمعناها هذا غريبة عن العربية، **فالعَفَر** أو **العَفْر** هما التراب، ومنه يُقال «تعفّر وجهه بالتراب» أي تمرّغ به. ومنها وصف الزوبعة الرملية باللهجة الكويتية **بالعَافُور**.

تقول المعاجم العربية إنّ **العَفَار** هو تلقيح النخل، وهذا عائد إلى أنّ «النّخلَ كان يُترَك بعد التّلقيح أربعين يومًا لا يُسقَى. قالوا: ومن هذا الباب التّعفير: وهو أن تُرضع المُطْفِلُ ولدَها ساعةً وتتركه ساعة.» (**مقاييس اللغة**). «والتعفير في الفِطام: أن تمسح المرأة ثديها بشيءٍ من التراب تنفيرًا للصبيّ.» (**الصحاح في اللغة**).

ومن هنا يتّضح لنا أنّ أصل الكلمة أيضا يُفضي إلى العَفَر وهو التراب. وعليه، يمكن أن ننقل -وبكلّ ارتياح- الاسم القديم لإفريقيا «**أفَار**» إلى العربية بقولنا «**عَفَار**».

افتتاح

جاءت هذه الرواية حينما تآمر الخيال مع غريمه الألدّ؛ الواقع.

أحداث الرواية خياليّة، لكن المؤسسات والجمعيات والمشاريع والرحلات والإحصائيات حقيقية، وقد اُستئذن القائمون عليها لتضمينها في الرواية. وشخصيات الرواية بدورها من وحي الخيال.

وهنا، عليّ أن أزجيَ امتنانا غامرا لَمن لم يبخلوا على أسئلتي الملحاحة بالإجابة:

صديقة العمر **سمية الميمني** صاحبة فكرة مشروع «ادفع دينارين واكسب الدارين» التي سمحت لي بالسطو على التفاصيل العامة لمشروعها واختلاق شخصيات وأحداث تعيش فيه، وتنمو، وتتصارع، وتلمع.

والأخ **ماجد سلطان الزعابي**، المصوّر الكويتي الذي أبهرت صوره العالم. الصور التي زوّدني بها لرحلاته الخيرية إلى إفريقيا ، كانت تقدح شرارة الفيض كلما خبا.

والأخ **فخر الدين**، سائق سيارة الأجرة التي أقلتنا في عمرتنا في ديسمبر ٢٠١٥. كيف اتفق أن يكون السائق سودانيا في حين كتابتي لهذه الرواية؟ إنّها الأقدار الربانية التي لا تعرف العشوائية. أعتذر له على كل الأسئلة التي نشّفت ريقه بها! ما كان يمكنني أن أقول له إني أسأل لأني أكتب رواية، وأحصل على إجابات عفوية ومنسابة كالتي حصلت عليها. شكرا له على كل ما أمدني به من دقائق عن السودان ومجتمعه.

وَاللهُ المُوَفِّق

ذاتَ انبلاج

«عن الحجر المُلقى، المهمل، العديم القيمة، كيف يصير بنيانا، وكيف يفدي مستقبل هؤلاء الصغيرات؛ يفديهن من الجوع، والجهل، والمجهول.»

(الراوي)

(١)

في الطائرة من الكويت إلى أديس أبابا، ومنها إلى الخرطوم.

فبراير ٢٠١٤.

تتصاعد حرارة قارصة إلى وجه مِشْعَل وأذنيه حينما يفكّر في الوعد الذي قطعه لجاره. يوجّه هواء مكيّف الطيارة نحو مُحيّاه الحرّان. يذكّره نَفْح الهواء ببَرْد ريق أمه وهي تولول في وجهه؛ وحيدِها اليتيم: «ماذا لو التقطت مرضا من هناك؟»، «لا تمشِ في المستنقعات!»، «شعّولي، لا تتهوّر وتقبّل أحدا من الأطفال!»

شعرَ بالأسف على كيس البصل الذي استقر في حاوية النفايات في قاعة المغادرين. أي فضيحة ستحل لو عُثر عليه أثناء التفتيش؟ ماذا يفعل كيس بصل في حقيبة ظهر شاب في التاسعة عشرة متجهٍ إلى إفريقيا، في عالم صارت مطاراته ترتاب حتى من قنينة ماء مختومة؟ هل سيصدّقونه لو قال إنّ جدّه ألحّ عليه ليضعه في غرفته في الفندق لأنّ البصل يمتص الفيروسات؟ «كل يوم قشّر بصلة جديدة وضعها في الغرفة»، بهذا أوصاه.

جَلَبَة من فتيان في الطائرة تذكّره برفاق الديوانية. «أخذتَ التطعيم مثل الأطفال؟» يسألونه هازلين وقد بدؤوا نوبة من الاستهزاء الفكاهي أو «الضَّغَاط» كما يُسمَّى في اللهجة الكويتية. «هيّا، هيّا، أرنا الندبة على زندك»، يقاطع آخر: «لا، لا. ننتظر لسعات البعوض، وعضّات التماسيح!»

يلاحظ تبرّج المضيفة المفرط؛ كريم الأساس يشكّل طبقة على وجهها جاعلا إيّاه مختلفا عن لون رقبتها السحماء. لباقتها الممزوجة بالخضوع تذكّره بعصر الإماء. تُناوله بعبودية فوطة ساخنة معطّرة. يشعر بالذنب للترف الذي هو فيه. يشرد مفكّرا في العالَم المتبجح بإلغاء الرق، في حين يعيد إنتاجه بتلوّن حربائي. العالم الذي يموت فيه ملايين من الجوع أو سوء التغذية، ويموت آخرون من البدانة وتوابعها. عالم يربط بعضه على بطنه لإسكات صرخات الجوع، ويكمّم بعضه الآخر معدته كي يردع نفسه عن شراهتها.

تختلط رائحة عطر المضيفة الذي ينخز منخريه برائحة طعام الطائرة. «لحم أم دجاج؟» تسأله. يتذكرُ الرجلَ الوقور وهو يقول: «كانوا يبكون فرحا، لم يذوقوا اللحم منذ سنوات». يتذكّر مشعل كيف ينفر من زُهومة اللحم، وكيف تتفنن أمه

في تتبيله وتطييبه. «لحم الحمير أخذ قلبك!» توبّخه دائما حينما يرفض أطباقها التقليدية، في حين يتناول البيرغر بشهية. خاطر فجائي يداهمه، «إذا كانوا لا يستطيعون إلى لحم الماشية سبيلا، فمن الطبيعي أن تنشأ لديهم عادة أكل لحوم البشر!» يتذكّر رفاقه مجددا، «مْشيعِل! سيعلقونك هكذا، ويشوونك!» يحمله رفاقه الثلاثة، تقع أوراق اللعب من يديه وتتناثر على الأرض. يحمله اثنان من كتفيه ويديه، والآخر يرفع رجليه في الهواء، ثم يهزجون بأغنية غير مفهومة: «هولا، هولا، هاما، هاما، عاما، عاما»، متظاهرين بأنّهم من أكلة لحوم البشر.

«سيّدي، سيّدي، هل أنت بخير؟ هل أحضر لك بعض الماء؟» تسأله المضيفة بوجه متقنّع بالود، يسيل القلق من جوانبه. في حين يتوقّف المضيف في الممر المجاور عن تقديم الطعام، ويراقب المشهد بفضول. ينتبه مشعل إلى أن شروده طال أكثر مما ينبغي. يسأل: «هل لديكم طبق نباتي؟» تفكّر المضيفة قليلا، ثم تسأله بتعاطف: «هل أنت نباتي يا سيدي؟ أم تعاني مرضا؟ للأسف، كان عليك طلب الوجبة النباتية من وكيل السفر أو عبر موقعنا على الإنترنت.» ينزعج من سوء فهمها، ولا يجد في نفسه طاقة أن يقول لها إنّه يخشى أن لا يكون اللحم على خطوط الطيران

هذه حلالا. «يمكنني أن أحضر لك سلطة إضافية إذا رغبت.» تواسيه. يهز رأسه رافضا، يعاكس ذوقه ويطلب منها وجبة لحم. تناوله إياها، وخوفُ أن يحدث له مكروهٌ يعصف بها.

أبخرة الطعام تتصاعد حينما يزيل الغلاف المعدني عن الطبق الرئيس؛ لحم بالخضار. يقشّر الغلاف البلاستيكي عن الشوكة والملعقة، يزيح اللحم المشكوك في أمره جانبا، يهمّ بأكل الخضار، خاطرٌ ما يدفعه إلى الأكل بيده. يشعر بجاره يشزره مستنكرا، يتجاهله مشعل. يزداد قلق المضيفة حينما تلمحه. تنهي توزيع الوجبات على عجل، وتتوجه إلى مطبخ الطائرة لتثرثر مع زملائها عن الراكب الغريب الأطوار هذا.

تنتأ أمام وجهه مضيفة أخرى أكبر سنا، تبدو المساحيق أكثر نفورا على وجهها الذي بدأت التجاعيد في التسرب إليه. تنحني وهي تتبسم بإفراط: «سيد ميشال، هل هناك ما يمكن أن نقدمه لك كي تكون رحلتك أفضل؟» يود أن يقول لها إنّ اسمه مشعل لا ميشال، لكنَّ العالم الذي يسبح فيه قلبهُ يبتلع قدرته عن الرد. يكتفي باصطناع ابتسامة سريعة ويهزّ رأسه لتختفي جنيّة المصباح هذه وتخلّي بينه وبين أفكاره المنثالة.

(٢)

مطار الخرطوم، السودان.

«أهلا بكم في الخرطوم. درجة الحرارة في الخارج ٢٧ درجة مئوية.»

يفتح هاتفه النقال ما إن تدبّ الطائرة على الأرض. يعتكر بعبارة «No Service» التي تلتصق في زاوية هاتفه. يغلقه ويعيد فتحه، لكنْ لا جدوى.

وَصَب يصيبه وهو يخرج من باب الطائرة. يشعر بتحسّن حينما يتذكّر أنّ أحد شباب الفريق التطوعي ينتظره في المطار. أخّره عن السفر معهم وفاةُ عمّه الفجائية واضطراراه إلى البقاء حتى يُصلى عليه ويُدفن. عمّه الذي كان المفترض به أن يقوم مقام أبيه الراحل، لكنّه لم يفعل قط. اليُتم وجفاء العم أنضجا هذا الفتى قبل الأوان رغم الحنان الفائض الذي تخصفه أمّه عليه، صار رجلا عنيدا مجلّلا بالتهوّر. «شعّول راسه يابس» كما يصفه جدّه. يتصرّف تصرّفات مجنونة ثم يبرّر: «ماذا سأخسر؟» ترد عليه أمه

بانكسار ممزوج باللوعة الاستباقية: «لكنّي أنا الخاسرة الوحيدة إذا حدث لك سوء». يحاول تخفيف خوفها: «ادعي لي، ادعي لي يا أمي.» ترد بكل قلبها: «ودّعتك الله يا نظر عيني».

يعيد المحاولة، وها هو هاتفه يتصل أخيرا بالشبكة. سيل عَرِم من الرسائل الهاتفية التي يتجاهلها، يتأكد من أنّ خدمة الإنترنت الجوّال مغلقة لئلا يتفاجأ بنفاد رصيد هاتفه. سيشتري شريحة محلية من المطار.

يقف في طابور ختم الجوازات، طابور لم يَخبُره زملاؤُه المتطوعون الذين اُستقبلوا في قاعة التشريفات التي عملت سفارة الكويت ومكتب الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الخرطوم على خصِّ الفريق بها. يرسل رسالة هاتفية إلى معاذ، «دكتور، أنا وصلت.» يتفاجأ بفشل وصول الرسالة. يكرّر محاولاته مرات عدّة دون جدوى. يفتح خدمة الإنترنت الجوال ليرسل لمعاذ رسالة عبر الـ«واتساپ». يبرز على جانب الأيقونة الخضراء رقم ٧٥٢! كل هذه الرسائل وصلت أثناء رحلته التي استمرت نصف يوم تقريبا. مجموعة العائلة وحدها وصل منها ٣٠٥ رسائل معظمها ثرثرات و«ضَغَاط» وتدوير لرسائل مكرورة. يمر على عجل على رسائل أمه المتقاطرة، يزمع أن يرد عليها لاحقا، عليه

الآن أن يرسل رسالة مستعجلة إلى معاذ. يصله رد معاذ فورا تقريبا: «الحمد الله على السلامة، شعّ النور متأخرا، متأخرا خمس ساعات! حبيبي أنا في انتظارك في قاعة القادمين.» «دكتور، ضع وردة في قميصك حتى يمكنني تمييزك.» يمازحه. «يمكنك تمييزي بسهولة من لون بشرتي، وإن لم يكن، فمن قميصي الأصفر؛ قدساوي مُخلص، هههه.» يعاجله مشعل: «الناس اليوم إمّا مدريديون وإمّا برشلونيون، يا شايب!» وينغمسان في مزاح مشترك ممزوج بالـ«ضَغَاط» الكويتي الشهير. لا يقطع مباراتهما الثنائية سوى حلول دوره في طابور الجوازات. يسلّم جوازه للموظف، ويغلق خدمة الإنترنت. أثناء وقوفه يشرع مشعل يتساءل: كيف يمكن لشيء مثل الضَّغَاط -وهو تهكم في جوهره- أن يغدوَ نوعا من أنواع المودة تُتبادل بين الأحبة؟

(٣)

في سيارة الأجرة في الطريق من الخرطوم إلى كَسَلا.

يوجّه مشعل ريشات تكييف السيارة الرديء نحو وجهه.
«يومان وتتعود. الجسم البشري سريع التكيّف، لا تقلق.»
يطمئنه معاذ وهو يرى العرقَ المتفصّد من جبهته، وبقعتين
كبيرتين تحت جناحيه تُظهران صدمة جسد أَلِفَ برودة فبراير في
الكويت.

«الخال» تعبير كويتي شائع عن الشخص ذي العرق الأفريقي.
تعبير متداول ومقبول، حتى أنّ أصحاب هذه البشرة
يستخدمونه لوصف أنفسهم أحيانا دون غضاضة. «من أين
جاء التعبير يا ترى؟» يسأل مشعل نفسه وهو يتأمل سواد سائق
سيّارة الأجرة.

«دكتور، ما فاتني في غيابي؟» ينتشل معاذ نفَسا: «يفترض أنّ
أعضاء المجموعة أتمّوا بعض الزيارات الرسمية اليوم. وعصر
الغد –كما تعلم– وضع حجر أساس المدرسة إن شاء الله.»

يتعمّد معاذ أن لا يذكر له زيارة دار الأيتام التي قام بها الفريق أمس. يدريه يتيما، ويمحض بالتالي الأيتام وُدا خالصا خاصا.

يُمعن معاذ في عبّ القهوة من الكوب الكبير رفقته، رابع كوب يشربه اليوم من قهوته/ قُوتِه/ قوَّته! يشعر مشعل بالشفقة على معاذ وهو يلاحظ التورم يزحف إلى جفنيه. انتظره في المطار منذ أكثر من خمس ساعات، وسيقطع الطريق معه، طريق يستمر ١٣ ساعة بالسيارة من الخرطوم إلى كَسَلا. رحلة الطيران الداخلي بين المدينتين لا تتوفر إلا مرتين في الأسبوع، ولم يتمكّنا ولا زملاؤهما من الاستفادة منها. «سامحني، أرهقتك!» يعتذر إليه. «عادي! الخفارات عوّدتني السهر. أزعم أنّ مستويات هرمون الكورتيسول في دماء الأطباء فوق الطبيعي بمراحل!» يضحك معاذ، ومعه مشعل وسائق السيارة المستأجرة.

«هل صحيح أنّ السودانيين كسالى؟ هل هذا السبب في تسمية كَسَلا باسمها هذا؟» يشاغب مشعل السائق الذي يتمطّى ويبدأ رده بقوله: «يا زول!» ثم يضيف وهو ينظر إليه في المرآة: «هل صحيح أنّ لدى كل كويتي بئر نفط في بيته؟» يقهقه الرفيقان على ظرافة السائق وسرعة بديهته.

ينكسر السد، وينساب ماء الحوار بين الثلاثة. «سنتوقف في استراحة محطة الوقود للصلاة.» يخبرهما السائق. يُصلّون المغرب والعشاء جمع تقديم، ويتجهون ليشتروا بعض ما يؤكل من البقالة لطريقهم الطويل. يتذكر مشعل أنه لم يشترِ شريحة هاتفية من المطار. يخيب أمله لعدم توفرها في البقالة.

سيمر عليه عند الوصول إلى كسلا أكثر من ٢٤ ساعة دون إنترنت باستثناء المحادثة السريعة بينه وبين معاذ. يهبط قلبه فزعا حين يتذكر رسائل أمّه التي لم يرد عليها. لا بد أن إشعار قراءة الرسائل عبر الـ«واتساپ» قد ظهر لديها، ولا بد أنها تلوك كبدها قلقا منذئذ. ينسى ما كان ينوي أن يشتريه من طعام للطريق، يفتح الرسائل الهاتفية ويجد تنبيها من خدمة المكالمات الفائتة بسبع مكالمات فائتة منها، ورسالتين نصيتين تسأله عن حاله. يخشى أن يفتح الـ«واتساپ»، فتلتهم الرسائل المحشوة بالصور والسخافات رصيد هاتفه المسبق الدفع قبل أن يسعه الرد عليها. يرد عليها برسالة هاتفية، تفشل -لسبب مجهول- في الوصول إليها رغم دأب التكرار. يطلب من معاذ أن يرسل لها من هاتفه يطمئنها. تتوجس الأم أكثر، تتصل بهاتف معاذ وتطلب أن تسمع صوت ابنها بنفسها. تتلقى منه كلمات

تطمئنها، وينطفئ بعدها هاتف معاذ لفراغ البطارية. «الآن نحن مقطوعان عن العالم تماما!» يقول مشعل وهو يصفق راحتيه متحسّرا. يلوّح لهما السائق أمير بهاتفه، هاتف «نوكيا» محاط بغلاف بلون أصفر فسفوري وله أزرار تشع في الظلام.

يشعر مشعل بشيء يجذب طرف قميصه؛ لها وجه صقيل كما لو كان من خشب الأبنوس، «سوداءُ واضحةُ الجبينِ * كمُقلة الظبيِ الغِريرِ». رأسها معمور بضفائر منمنمة مصفوفة كحبال سوداء متينة. لا يقطع هذا السواد الآسر سوى يديها اللتين تمدّهما إليه بعقود من الخرز الملوَّن. يصيح عليها صاحب البقالة ليصرفها. يستمهله مشعل، لكنه يمضي في إرادته. «هؤلاء يتسولون بطريقة غير مباشرة ويفسدون علينا زبائننا.» يستعجل مشعل في دفع الحساب، ويخرج يبحث عن الطفلة، لكنه ما يجد لها أثرا.

«هل رقم هاتف الوالدة مُخزّن في جهازك مسبوقا برمز الاتصال الدولي بالكويت؟» يسأله معاذ وهما يستكملان الساعات المتبقية من الطريق. موجة إدراك متأخر تلطم مشعل. يتجمد قليلا، ثم يقول «لا» ممزوجة بضحكة منفجرة.

«يلتقي فرعا النيل في الخرطوم.» يقول لهما أمير. «الفرع الأول، النيل الأزرق يأتي من إثيوبيا، والثاني، النيل الأبيض مِن بحيرة ڤيكتوريا مارّا بـ ... بجمهورية جنوب السودان.» يقول بحرقة، « ذهب الجنوب ومعه ٨٥٪ من نفط السودان!» يستدرك: «النيل المغاير، يجري من الجنوب للشمال، وهذا يعني أنّ كلا الفرعين يأتي من عند النصارى!» يشاكسه معاذ: «أحدهما يأتي من أرض النجاشي!» يتأوه أمير: «أين هو النجاشي؟! رجل لا يظلم عنده أحد.» «زول حقيقي!»، يهازحه مشعل. «ماذا لو قطعوا الماء عنكم في يوم؟ إثيوبيا قد تفعل ذلك خاصة في ظل النزاع على الحدود. هل يكرع الناس الماء من المستنقعات؟!» يقلق مشعل. «هل تعلم أنّ كينيا وهي إحدى الدول التي ينبع مها النيل الأبيض تخطط لبناء سدود بالتواطؤ مع جنوب السودان؟» يجيب أمير، يتنهد الثلاثة.

«قبل الغزو، علّمونا في منهج الاجتماعيات أن السودان سلة غداء العالم العربي» يقول معاذ. «هذا كان في الماضي، أيّام القومية العربية. كل شيء انتهى منذ أن فعل صدام فَعلته. هذا كله بسبب أمريكا؛ هي حرّضت صدام، وهي خلعته حينما أرادت أن تستولي على العراق، ثم جاءت وزادت الطين بلة

بالربيع العربي الذي اخترعته. هذا كله عمل السي آي ايه! الشرق الأوسط الجديد، أمريكا تريد تفتيت الخارطة، حتى يخلو الجو لمدللتها لإسرائيل لتصبح إسرائيل الكبرى؛ أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل. كل هذا من أجل الأرض الموعودة أولا، ومن أجل مصادر المياه. الحرب القادمة حرب مياه. وسيتركوننا نموت عطشا وعجزا!». يُعجب معاذ ومشعل بتحليلات أمير البسيط، صاحب هاتف النوكيا الفسفوري. يمازحه معاذ: «لحسنا الكوع ما في رجوع؟» يقهقه أمير قائلا: «انكسر الكوع، وانكسرت الرقبة يا زول!»

كلمة «زول» تثير في مشعل تداعيا مع كلمة «زول» في اللهجة الكويتية. يأخذ يدندن في نفسه:

«جاني زوله مِن بِعيد،

وشِفت طيفه في المنامْ.

لابسٍ ثوبٍ جِديدْ،

أبيض بلون السلامْ.

وابتدا بأحلى الكلامْ ...»

(٤)

الفندق، كسلا.

أزير التكييف المثبت في حائط الغرفة يزعجه. «لا تفتح النافذة، خطر البعوض!» مكتوب على ملصق شفّاف على النافذة. يسلّي نفسه بقول معاذ «الجسد البشري يتكيّف سريعا». اشترك أعضاء المجموعة في الغرف، شخصان في كل غرفة. ولأنّ مشعل وصل متأخرا بعد أن وُزّع الأعضاء على الغرف، حظي هو بغرفة لا يشاطره فيها أحد.

يفتح حقيبته التي تنتهز الفرصة الغالية فتلفظ أشياء مدسوسة فيها، جُلُّها وُضع بغير إرادته؛ مناديل معقّمة، رزمة هُلام معقم بعطر العنبر، بخاخ معقّم للأسطح، قفازات مطاطية أحادية الاستخدام، شوك وملاعق بلاستيكية، واق من الشمس بعامل حماية قوة ٥٠، دزينة وجوه قطنية للمخدات.

يبحث عن أغراضه التي يحتاجها فعلا في جبل القلق الذي دسته أمه في حقيبته. يسمع أنين هاتفه طالبا التزود بالطاقة. يشعر

بالانتعاش كونه أمضى كل هذه الساعات دون أن يحني رقبته لرَسَن مستطيل الضوء الساحر. يستسلم لرغبة لذيذة في إذلال الهاتف. يتجاهل جوعه، يطفئه، ويودعه حقيبة ظهره. يروقه الوضع، يقرّر أن يؤجّل شراء شريحة هاتف محلية.

(٥)

الفندق، كسلا.

طرقٌ قوي يتتابع على الباب. ثقل النوم يجعل مشعل يظنُّ أنّه يحلم. صوت طقطقة المفتاح وصرير انفتاح الباب يجعلانه يدرك أنّ الأمر واقع. يفزع من نومه ليرى مسؤول الفندق يفتح الباب ويدلف إلى الغرفة مع عبد الهادي مشرف الرحلة ومعاذ. «مشعل، أقلقتنا عليك. الساعة تقارب الواحدة ظهرا! تخلّفت عن الفجر والظهر. هاتفك مغلق، قلقنا عليك!»

«فاتتني الصلاة!» يلطم جبهته، يتذكر أن منبِّه الهاتف النقال لا يرن إذا كان الجهاز مغلقا. يلعن التقنية في سره وهو يمسح عرقا يتصبب من وجهه، عرق انفعال، «عرق بارد» بالمصطلح الطبي كما كان معاذ سيقول له.

«صباح الخير الظهر!» يبدأ معاذ بمفاكهته بمجرد تأكدّه أنّه بخير. يأسى مشعل على الصلاة التي فاتته. «معذور يا ولدي» يطمئنه عبد الهادي. تستمر سحابة الأسى على وجهه. «والنائم

حتى يستيقظ»، يذكّره بالحديث. حينها فقط تطمئن نفسه.
«سيلتقي الجميع الساعة الثانية في المطعم.» يوصيه عبد الهادي ويناوله سترة ترابية تشبه سترات الصحافيين مطرز عليها علم الكويت واسم الفريق. يَعْجَل مشعل يصلّي ما فاته.

(٦)

الفندق، كسلا.

تتأمل روعة بقع المياه على أرض الحمّام، يمكنها أن تأوّل كل بقعة تأويلا لا يخطر ببال أحد. هذه بقعة لها شكل وجه الأسد، وتلك وجه لامرأة عابسة لها أنف معقوف، والأخيرة لفتى زنجي مكدود من عمله الشاق، ينادي الزبائن بصوت عال ... تُراع قليلا حينما تسمع صوت الفتى! لا يخفف من روعها سوى أن الصوت لا يبدو قادما من بقعة الماء، بل من نافذة غرفتها في الفندق.

تسير نحو الصوت كبُرادة حديد لاقت مغناطيسا. تطل من النافذة لترى غلاما يضع صندوقه الأسود أمامه، ينادي بصوت اختلطت فيها الطفولة ببوادر الرجولة، ينتظر سائحا موسرا يأتيه ليمسح له حذاءه أو يخصفه.

تتذكّر القصة التي سمعتها منه يوما في مقابلة تلفازية. تنثال الكلمات من قلبها، تنبش كالمدمنة عن ورقة وقلم، تُوّفق بقلم

قريب، في حين تعجز عن اكتشاف مكان الأوراق المودعة في درج المكتب. لا تقوى على بضع خطوات لاستلال ورقة من حقيبتها، كل هنيهة في وقت الفيض ثمينة. تنتزع علبة المحارم الورقية من غلافها القماشي السميك، تقلبها على جانبها، وتشرع روعة تكتب:

يبلغكَ النبأ، المحاسب يرفض تمرير ربع دولار جاء في الميزانية ممهورا بفاتورة تقول إنها تكلفة إصلاح حذائك، حذاءِ رئيس مجلس الإدارة أثناء زيارته الخرطوم. تستدعيه، تُضمر في نفسك أمرا. تعمد إلى تعكير قسمات وجهك. تخبره إنّ هذا مبلغ حقير، وإنّ ومن حقك وأنتَ مَنْ أنت أن تنفقه. يجيب الرجل الجسور بأنّ عليك أن تدفع المبلغ من جيبك، فالمؤسسة ليست مسؤولة عن نفقات شخصية مثل هذه! تزمع أن تمتحن الذهب بالنار. تحدّ النظر إليه والكلام، تهدده بقطع قُوته. تلمح لآلئ عرق على جبينه، وإباءً باديا في عنقه المرفوعة، الصامدة بصمت.

بقامتك الضخمة تنهض. تتجه نحوه. يتوقّع ما سيحلّ

به، بيد أنّه يأبى الفرار أو استباق الدفاع. تفرد ذراعيك في الهواء، توسوس له نفسه أن يجفل، يعصيها. تقتربُ منه أكثر، تأزف اللحظة التي يتوقعها، تأخذه بين ذراعيك، يتجملد مكانه، بعد قليل ستطوّح به، لا بد أنّها طريقة جديدة للمصارعة، هكذا يخيّل إليه. تخلّي سبيله وأنت تقول له: «لك راتب شهر كامل من جيبي!»

(٧)

الفندق، كسلا.

طوفان من الوجوه المتدرجة من الأسمر الغامق حتى الأدلم التام. يأخذ في اعتياد الجلد الغامق. «تتكيّف العين البشرية بسرعة كما يتكيف الجسد» يقول معاذ لنفسه.

يُخرج خزين الأسماء من ذاكرته: موسى عليه السلام. لقمان الحكيم. ومن الصحابة رضي الله عنهم: بلال بن رباح، أسامة بن زيد بن حارثة، أم أيمن، مهجع بن صالح مولى عمر بن الخطاب، عامر بن فهيرة، وحشي، النجاشي. عنترة. سُحيم. نفطويه. الجاحظ الذي ألف رسالة بعنوان «فخر السودان على البيضان». ثورة الزنج. كافور الإخشيدي. نظرية ابن خلدون في تأثر طباع العِرق بالمناخ. أوباما الخُلاسي. محمّد علي كليه. مالكوم أكس. حكيم عليوان. مارتن لوثر كنگ. روزا پاركس. نلسون مانديلا. لاعبوا كرة السلة العماليق. العداؤون الأفارقة

اللابطين بأرجلهم الطويلة.

يسارر معاذ نفسه: «ماذا نعلم عن السواد نحن؟ نحن الذين إذا سئلنا عنه دبّجنا الكلام عن بلال بن رباح رضي الله عنه، وعنترة بن شداد، وإذا غضب بعضنا من شخص غامق البشرة وصفناه بالعبد!»

«قديما، كان وجود العبيد والإماء في الكويت اعتياديا حتى العشرينيات حين صدر قانون يحظر استيراد العبيد. لكنَّ الأمر استغرق وقتا معتبرا حتى يخلو المجتمع من العبيد. وكذلك العنصرية، ستستغرق وقتا، ثم تزول.» يسلّي معاذ نفسه.

(٨)

مطعم الفندق، كسلا.

يلتئم الشمل أخيرا في الغداء التعارفي الجماعي. وجوه كثيرة يراها مشعل للمرة الأولى، لم يكن يعرفها إلا أسماءً عبر مجموعة الفريق في الـ«واتساپ». بخلاف الإداريين، البقية شبان وشابات من جامعة الكويت، عملوا في الترويج للمشروع وجمع التبرعات، فأُبتعثوا في هذه الرحلة ليشاهدوا الأثر وينقلوه لزملائهم. لم يحظ جميع المتطوعين بالفرصة هذه، بل فقط أولئك الذين تمكنوا من جمع ١٠ آلاف دينار تبرعاتٍ لمشروع كسلا تحديدا، وحظوا بتقييم مرتفع لمشاركتهم في فعاليات المشروع التي تهدف إلى توليد الأرباح؛ ندوات، دورات، معارض، بيع بالونات وأساور فُل، يذهب ريعها كلها للمشروع.

فكرة المشروع بسيطة، تلك البساطة الفاعلة. «ادفع دينارين واكسب الدارين»، يقتطع الطالب الجامعي دينارين شهريا من مكافأته الجامعية البالغة مئتي دينار والتي يحصل عليها كل

طالب كويتي في مرحلة التعليم الجامعي. تُجمع المبالغ وتُبنى بها مشروعات تعليمية حول العالم. البداية كانت في الصين، ثم في إندونيسيا، واليوم يُوضع حجر الأساس لثانوية للفتيات في كسلا.

أتى متأخرا، فلم يجد لنفسه مقعدا إلا يمين شاب لا يعرف من هو بعد، شاب تناهز سمرته تخوم السواد. يأتي النادل ببعض المقبّلات السودانية الشعبية. يهمس له الجالس إلى جانبه: «هذا مسعود!» يستغرب مشعل فيسأل: «مسعود مَن؟» يضحك الشاب ويدندن: «باكر العيد ونذبح بقرة، نادوا مسعود كبير الخنفرة». يصمت هنيهة ثم يضيف بصوت أعلى: «مسعود طبعا كان خالا ... مثلي!» ينفجر الكل ضاحكا، وما كان أحد ليفعل لولا أنّ التعليق جاء من «خال». تكسر ظرافة غانم وتواضعه الأقفاص الزجاجية التي كان الجميع يتمترسون فيها، يعمّ جو من مودة. للتو فقط ينتبه مشعل أن جميع أعضاء الفريق من ذوي البشرة الفاتحة باستثناء غانم. من سيصدّق أنه الأمر جاء قَدَرًا لا رفعًا للعتب؟

يتذكّر مشعل سؤاله عن أصل كلمة «خال»، يخطر له أن يسأل تركي القابع على طرف الطاولة منشغلا بهاتفه. يبدو منهمكا في

كتابة شيء، قصيدة جديدة غالبا. هذا الفتى منذ عرفه مشعل والشعر ينثال عليه انثيالا، شاعر مطبوع يمكنه أن يكتب قصائد بالفصحى وأخرى عامية بسهولة لا تصدق. كتب في إحدى المرات قصيدة من ٢٠ بيت في عشرة دقائق حينما كانا ينتظران طلبهما في مقهى. كيف يحدث أن يدرس هذا الإنسان الرياضيات بدلا من الأدب؟ يقول تركي لمشعل دائما إنّ الشعر كالرياضيات، قياسات ومعادلات.

يخرج تركي عصا الـ«سَلْفِي»، يلتقط صورة لجميع الجالسين إلى الطاولة. يرسلها عبر الـ«واتساپ» إلى أصدقائه. يتذكّر مشعل أنّه عاطل عن الإنترنت. يبتهج للفكرة، يشعر أنّه هذا طقس تخففي، جزء من التجربة التي هو مقدم عليها، تجربة تجريد النفس مما اعتادت عليه، تجربة فِطام. من السهل على المرء أن يتعاطف مع جائع ويهز رأسه أسى وأسفا، لكنه حينما يجرب الجوع، لن يكون قيد التعاطف، بل قيد المعايشة. ومن السهل أن يحزن لكل هؤلاء الذين لا هواتف نقالة لديهم ولا حواسيب، لكنه سيعلم شعورهم حينما يزرع نفسه محلهم، يرى بأعينهم، ويشعر بقلوبهم.

يقهقه تركي: «تعليقات أصحابي تنهمر! أحدهم يقول: فسد

المطاوعة، اختلاط يا شيخ؟! خلاص، أنا قررت أن أتديّن! متى الرحلة القادمة؟»

تُستفز روعة أخيرا، تستوفز، تخرج من فقاعتها، من الجناح الشرقي للطاولة حيث تجلس الفتيات تقول بصوت غضبان: «قل له أن يمنع الاختلاط في الحرم إن استطاع!»

(٩)

حي الختمية، مدينة كسلا.

لا ثانوية للفتيات في حيّ الختمية، أحد الأحياء الثلاثة الرئيسة في مدينة كسلا. هذا يعني أنّ مستقبل الفتيات يعجز عن المضي قدما في مجتمع لا يقبل لفتياته التنقل بعيدا. اليوم يوضع حجر أساس ثانوية لهن. واحد في المئة من دخل الطالب الجامعي الكويتي الشهري لا يعني شيئا مذكورا، لكن به تُغزل شمسُ مستقبلِ هؤلاء الفتيات.

ما كان مشعل ليتخيل أن الأمر جدّي ومبهج بالنسبة إليهم إلى هذا الحد. تقيم حكومة الولاية احتفالا بقدوم الفريق التطوعي بحضور وزيرة التربية في ولاية كسلا. أفواج من الصغار- والصغيرات أغلب- يصفون أعلاما للكويت رسموها بأيديهم، يهزجون بكلمات ينطقون فيها اسم الكويت نطقا سودانيا مميزا، الكِيويت، كنطق العبارة الإنكليزية Key Wait. قدْر الفرح على وجوه الأطفال غير قابل للقياس، لم يجد العلم وحدةً بعدُ

لإحصائه.

دينار‌ان، ثمن وجبة في مطعم وجبات سريعة تافه. دينار‌ان، ثمن مَلء معظم خزّان سيارته اليابانية بالبنزين. دينار‌ان، ثمن زبادي مثلج مكسو بصلصة الفستق الأحبّ إلى قلبه. دينار‌ان، ثمن الكاباتشينو الذي يرشفه يوميا في فراغه الصباحي بين المحاضرات. دينار‌ان في الشهر تشيد كل هذا الأمل. في هذه اللحظة فقط يعتمل في صدر مشعل شوق لهاتفه النقال، يبدده وجود مصوّر يرافق الفريق لتوثيق كل شيء. يتوق للعودة كي ينقل المشهد لزملائه الذين استقطعوا هذا المبلغ الزهيد من مكافآتهم. يريد أن يخبرهم عن أثر الشيء الصغير، عن الحجر الناعم الذي يخدش وجه البحيرة الراكدة، عن السد الذي يتكوَّن من أحجار ضئيلة. يود لو يخبرهم عن الحجر المُلقى، المهمل، العديم القيمة، كيف يصير بنيانا، وكيف يفدي مستقبل هؤلاء الصغيرات؛ يفديهن من الجوع، والجهل، والمجهول.

*****

تترك روعة ساحة الاحتفال، وتندسّ بين صفوف الصغيرات المشحونات فرحا وأملا. تمسك كثيرات منهن بشهاداتهن

الدراسية لهذا العام يتباهين بها أمام الزائرين. العام الدراسي انتهى للتو، وتبدأ في مارس عطلة تمتد حتى منتصف يونيو. تقويم دراسي مغاير تتبعه بعض ولايات السودان ومنها كسلا.

تتوغل روعة بينهن، تتصفح الوجوه، تحفظ المكان في ذاكرتها، ترى بعينها التفاصيل التي لا تهمّ الناس عادة. ترى رأسا مختلفا؛ فتاةً في التاسعة أو العاشرة ترتدي خمارا أصفر بخلاف الأبيض السائد لدى الباقيات. لم تنتبه قبل ذلك إلى أن معظم الفتيات يغطين رؤوسهن، ولم تنتبه أنّ كل الأغطية بيضاء إلا حينما رأت تلك المتلفّعة بالصفار. يبدو أن عين الإنسان لا تجادل في ما أمامها إلا حينما ترى ما يغايره. تغضب من نفسها، كيف -وهي التي تزعم أنّ لها عينا أدبيّة- لم تنتبه إلى هذا التفصيل؟ تدنو من الصغيرة، تسألها عن سر خمارها الأصفر. تجيب الطفلة أنّ الخمارات البيضاء زي المدرسة الرسمي، وهي لا تذهب إلى المدرسة لأنّ أهلها فقراء. تُشده روعة، تجعل تتأمل وجه الصغيرة، تريد أن تخزنه في قلبها، تريد أن تكتب عنها، أن تكتبها. تتذكر كيف تنفر شقيقتها الصغرى حصة من المدرسة. تود لو تخبرها عن هذه الفتاة التي تتشوّف إلى المدرسة، كما تتشوف هي إلى اللعب والتنصل من واجباتها.

تمسح روعة على رأس الصغيرة. تحار كيف تساعدها، كيف تنقلها من وعثاء الصَّفَار إلى سَعة البياض. تود لو تطلب منها رقم هاتف أبويها، لكنها تخشي أن تُمعن في خلع قلبها بقولها إن لا هاتف عندهم. تنحني على ركبتيها وتقابلها: «سأعملُ على أن تدخلي المدرسة!» تنظر إليها الصغيرة نظرة من يكتم البهجة خشية خيبة الأمل. «أعطني اسمكِ الكامل وعنوانك.» تدوّن روعة العنوان على ظاهر يديها. تنطلق الصغيرة وهي تموّه عن دموعها بضحكتها، وتخفي ضحكتها بيدها. تمضي الصغيرة، وترى روعة ظلها يكبر ويكبر كلما ابتعدت، تراها طالبة في الثانوية الجديدة. تكركر روعة فرحا، تكفكف نشيج سعادتها بيديها.

(١٠)

الفندق، كسلا.

يجوس مشعل بالقرب من الفندق، يعثر بشيء فتنفصم قاعدة حذائه عن أعلاه فيبدو كحوتٍ فاغرٍ فاه. يرجع إلى الفندق، ينبش حقيبته الحبلى بكل شيء إلا ما يحتاجه بشدة في هذه اللحظة، حذاء آخر! الحقيبة المترعة بكماليات لا تخطر على بال تخلو من شيء ضروري كحذاء احتياطي. هو اعتمد عليها في ذلك، وهي اعتمدت عليه. القصة المعتادة، تراه كبيرا لا يجوز أن يفوته ذلك، ويراها مسؤولة عنه لا يجوز أن تنسى ذلك. حقا، كيف فاتها ذلك؟ ألم تفكر وهي تدس دزينات من الجوارب في حقيبته أنّ حذاءً احتياطيا أمر لا غنى عنه؟ ماذا لو ثُقب الحذاء وأصابته البلهارسيا؟ احتمال لم يمر على بال أمه القلوقة على ما يبدو.

يهز كتفيه قائلا: «لن تكون مغامرة حقيقية دون مصاعب من هذا النوع. سأتقشّف وأرتدي نعال الحمام القماشية!» ينتبه

إلى عدم توفّرها. يزفر وهو يرنو عبر النافذة، يتذكّر عبارة أمّه الشهيرة «ما يهلّ الخير والشمس طالعة»[1]. يسمّي الكويتيون المطر بالخير. لا يمكن للغيث أن ينزل ويبهج الأرض ومَن عليها إلا حينما يغيب وجه الشمس الجميل الذي يمنح الضوء والبهجة. الشمس والمطر أصلا الحياة، لا بد أن تغيب نعمة، كي تفسح لغيرها مساحة للظهور. في لوحة معلقة في الغرفة، كتبت عبارة بخط الثلث: «ما أخذ منك إلّا ليعطيك». يشعر أن هذه اللوحة موجودة في غرفته لسبب ما، لرسالة ما! يشعر أنّ عليه أن يستبشر بهذه المشكلة، وينتظر الخير القادم بُعيد غياب الشمس.

عبر النافذة، تقع عيناه على غلام يهم بافتراش الأرض ليضع عدته عليها، إسكافيّ صغير! يجرّب نصف الحفاء، يعرج نحوه، يتذكر نهي النبي -عليه الصلاة والسلام- عن السير بنعل واحدة، يخلعها ويخبط الأرض حافيا نحو الغلام.

يرى يديه الصغيرتين المبقعتين بآثار عدّته القاسية. يخرز الغلام حذاء مشعل والعرق يتفصد من جبينيه كما لو كان جرّاحا. يتذكّر معاذ. كم يتقاضى هذا الصغير مقابل خياطه حذاء، وكم

١) لا يسقط المطر والشمس مشرقة.

يتقاضى معاذ راتبًا؟ هل الفارق راجع إلى نفاسة المعمول عليه؟ أم لمشقة العمل؟ أم لطول التدريب وصعوبته؟ «شرف العلم من شرف المعلوم.» يتذكّر مشعل ثم يضيف: «وشرف العمل من شرف المعمول عليه».

قُبيل فراغ الغلام من ترميم حذائه، يتلقّف مشعلا مارٌّ لاحظ علم الكويت على سترته. «مِن الكويت؟» يسأله. يهز رأسه متوجسا مشعل. «اسمي تاج السر منير، خريج ثانوية الشويخ في الكويت. كانت أياما!»

يتأمل مشعل وجهه، رجل في السبعين من عمره، يرتدي «الجلابية» السودانية البيضاء ويلفّ رأسه بعمامة كبيرة بيضاء. على خديه شقوق أفقية يظهر أنها أُحدثت عمدا، تختلط بتجاعيد عميقة تخفّف من وضوح الشقوق. يقول تاج السر: «الكويت، بلد الرجل الطيب عبد الرحمن السميط.» يرتاح مشعل للرجل، يدعوه إلى الفندق ليشربا الشاي. «لا والله، أنت ضيفنا!» يصر على دعوة مشعل إلى شاي سوداني في مقهى شعبي قريب. يرتدي مشعل حذاءه ليرافق تاج السر، وينقد الغلام دولارا كاملا يشهق فرحا به حينما يُعليه تجاه الشمس ويتأكّد أنّه حقيقي.

«كيف حال الدكتور السميط؟ متى سيزورنا في السودان؟»
يسأل تاجُ السر بلهفة. يتردّد مشعل، لكن يجد أنّه لا بد من إفشاء الفجيعة: «أبو صهيب تُوفّي قبل سنتين تقريبا.» يقلّب الرجل كفيه ويصيح «يا سلام! يا سلام!» يستنكر مشعل قوله! لكن لغة الجسد تُفطنه أن العبارة في اللهجة السودانية تعني التوجع لا الاستحسان. يصمت الرجل، تجاهد الدموع كي تطفر من عينيه، ويجاهد هو في ردها.

يأتي معاذ ملوّحا: «أين أنت؟ تغيب هكذا دائما وتقلقنا عليك؟ خُذ، هذه شريحة محليّة اشتريتها لك. يا الله، كلّه بثوابه!» يصرّ تاج السر أن يدعوَ معاذا إلى شرب الشاي أيضا. «شاي هذا المقهى ليس كشاي الفندق. وهل يكون الشاي شايا إلا حينما يكون أسود كالليل، ومتخما بالسكّر حتى يكاد يُشرقك من فرط حلاوته؟» يقول تاج السر شارحا. يقهقه مشعل: «على فكرة، الدكتور معاذ طبيب. بالنسبة إليه، ما ستسقيه إيّاه قنبلةٌ من السكر وبركان من الكافيين.» يلوّح تاج السر بظاهر يده كما لو كان يطرد الفكرة: «مَن يسمع كلام الدكاترة يتعب. صح يا دكتور؟» يجد معاذ نفسه مدفوعا إلى الضحك.

«الكويت، الكويت. الله، الله!» ينطق الكويت بالنطق الذي بدأ مشعل يألفه: «الكِيويت». «ذهبتُ إلى الكويت طفلا، ودرست فيها حتى آخر سنة في الثانوية حينما تُوفي والدي واضطررت إلى تركها. ‹الكويت بلاد العرب› كانت تلك العبارة تُطبع على قرطاسية المراسلات البريدية. ثانوية الشويخ! سكنت في مهجعها الداخلي الذي ضمّ جنسيات كثيرة. كويتيون، وفلسطينيون، ومصريون، وجزائريون، وسودانيون، وجنسيات أخرى. أتذكّر جيدا طالبا جزائريا اسمه عبد العزيز. كنا نتجمّع ونخرج لنهتف ضد الاستعمار الفرنسي، ونهتف باسم جميلة بو حيرد؛ ‹ما أصغر جان دارك فرنسا في جانب جان دارك بلادي› كما قال نزار قبّاني. أيّام! أيّام! معظم رجالات الكويت الذي حملوا نهضتها على أكتافهم تخرّجوا من ثانوية الشويخ. بُنيت هذه الثانوية في ١٩٥٣، أي قبل الاستقلال بعقد تقريبا. لم تكن ثانوية داخلية فقط، بل مدينة مصغّرة؛ فيها مسرح، وملعب رياضي، ومطعم، ومستشفى، وحدائق، وملاعب. لا أستطيع أن أنسى مجسّم الكرة الأرضية الشهير.» ينظر معاذ إلى مشعل: «جامعتكم!» يهزّ مشعل رأسه: «أقيمت جامعة الكويت مكان ثانوية الشويخ، ولا يزال مجسّم للكرة الأرضية ماثلا. في حرم

الشويخ ثلاث كليات الآن، وكثير من الإدارات.» يهشّ تاج السر لسماع ذلك. «كنت أخشى أن تكون هدمت، أو أقيم مكانها مجمّع تجاري!»

يتذكّر مشعل مبنى كليته؛ الأبواب الكبيرة، والجدران الخالية من العازل. قيل له أن قسما كبيرا من مبنى الكلية كان أصلا من مباني ثانوية الشويخ المشيدة في الخمسينيات. بناء ذاك الزمان من ذهب؛ الأساسات موغلة في المتانة، والطابوق ثقيل وعسر الكسر. قرر المهندسون أن يجددوا المبنى ويستكملوا البناء على امتداده، فالأساس أثمن وأصلب من أن يُهدم. يتذكر المباني القريبة من الساحل، كلّها من بقايا ثانوية الشويخ، يسهل على الرائي أن يتبين ذلك؛ البنيان الخارجي ذو الملمس الخشن يقف كالطود الشامخ، في حين تتصدّع جدران وتخر سقوف طارفة بنيت منذ بضع سنين. ما الذي حدث للعالم؟ كان كل شيء يُصنع على مهل، وبنُدرة، وجودة عالية. اليوم، تتوالد الأشياء مثل الأرانب، أرانب رديئة وخديجة. عالم البلاستيك، عالم النفايات، عالم يوسّخ نفسه بنفسه. عالم يخترع أكياس البلاستك، ويستخدمها بنهم، ثم يحار كيف يجعلها تتحلل. يحتاج كيس البلاستك -نظريا- ٥٠٠ سنة كي يتحلل! يحنّ مشعل إلى زمن

لم يعشه.

يتحمس لالتقاط صورة تذكارية مع تاج السر ليرسلها لأمه لتُريها جدّه. يُرجع التقنية إلى عصمته، يبدّل شريحته إلى الشريحة المحلية التي أحضرها معاذ.

(١١)

بيت تاج السر، كسلا.

كما العادة، يقعقع الباب الحديدي وهو يفتحه. يدلف تاج السر بيته ذي الطابق الواحد، تلازمه حدبته. يُهرع رغم ألم عظامه إلى المخزن، يبحث عن الصندوق. يجيل بصره، يلاحظه هنالك عاليا. ينادي ابنه، يتباطأ عثمان المشغول بأحلام اليقظة حتّى النخاع. يُنزل له الصندوق بعد شد وجذب معتادين كلما طلب منه الأب شيئا. يتساءل في نفسه عن سبب جمع أبيه هذه الخردة.

يتربع الشيخ أرضا رغم نهي الطبيب له. «مَن يسمع كلام الأطباء يتعب»، عبارته المفضلة. يكشط بيده الغبار العالق على الصندوق والذي أضحى طبقة سميكة تستلزم جهدا لإزالتها. يسعل قليلا، يسمع صوت «عَشّة» زوجته تسأله إن كان بخير، يطمئنها. يتعالى صوت ابنه عثمان مخبرا أمه أنه يعبث بصناديق المخزن، المخزن الذي يطمع أن يحوّله إلى غرفة خاصة به بعد أن ضاقت به غرفته الصغيرة التي يتشاركها مع شقيقه الصغير

الفاتح الذي يمضي وقته كلها محدقا في شاشة الهاتف النقال ويحرمه نوما يحتاجه لنهار العمل الطويل الذي يتربّص به. صار الفاتح يستخدم سماعات الأذن، لكن لا يزال الصوت المتسرب منها والضوء المشع يفسدان على عثمان نومه. المخزن الذي تطمع عشّة أن يفرّغه ليغدو غرفة محترمة لاستقبال الضيوف أو ملتقى للأحفاد والأسباط حين يزورونهم. في كل مرة ينتهي النقاش برفضه الناجز، وتزمّ عشّة شفتيها، فتبرز «شلُوخ» خديها؛ شقوق كانت تحدثها بعض القبائل في وجوه أبنائها لتمييزهم أو لتجميل النساء. شلوخ على شكل ثلاث خطوط أفقية على خدها تظهر انتماءها كزوجها للشايقية، إحدى فروع قبيلة الجَعليين. عائشة، في معظم الأقطار العربية تسمّى «عايشة»، وفي مصر والمغرب «عيشة»، أمّا في السودان «عَشَّة».

يشعر تاج السر بالضيق من مزاحمتهم له مكمنَ كنوزه. يفتح الصندوق بلهفة يشوبها وجل. ألبوم صور، لباس الكشّافة، علم قماشي للكويت، وآخر مكتوب عليه «يسقط الاستعمار» مكتوبة بحبر بَهَتَ. يفتح الألبوم، وتنثال الذكرى؛ يتذكر في عام ١٩٥٦ يوم خرج مع صحبه في الثانوية في مظاهرة يحتفلون باستقلال السودان. كان الجميع يهتف فرحا كما لو كان الأمر قضيته

الشخصية جدا، كما لو كان الوطنُ وطنَه. يتذكّر زميله الجزائري عبد العزيز، يحاول تذكر باقي اسمه، لكنّ ذاكرته ترتد حسيرة. «آه لو دوّنت اسمه.» يبحث خلف الصور عن أسماء الظاهرين في الصورة، لكنّ الحبر تبدّد وتلاشى. كان عبد العزيز يقول لهم إنّ النضال الذي يمرّ به وطنه مؤلم لكن حلو! ينكمش الألم، يتصاغر، يندحر، حينما يشاطره المرءُ غيرَه. يستشعر تلك الروح، لا يزال يجد أثرها في نفسه.

طرق حثيث على الباب يقطع خيط ذكرياته. يستمر الطرق المتعجل، يسمع صوت آدم صبيّ المقهى ينادي:

«افتح الباب يا أبا محمّد، نسيت شيئا عندنا في المقهى اليوم.»

(١٢)

الفندق، كسلا.

يضع مشعل رأسه المُثقل على الوسادة. يشعر بدوامة ناعمة تسحبه إلى عمقها، يرى نفسه يتحرك في الماء بمنتهى التمكُّن. يرتقي سلما يقوده إلى طائرة لها ذيل مرفوع بكبرياء. يسلّم ملثما بالبياض لؤلؤةً كانت بحوزته. وحين يُتمّ ارتقاء السلم عائدا إلى الطائرة، يلتفت فيجد الفتى الملثم قد بذر اللؤلؤة. يراها تُنبِت من فورها شجرةً مهيبة خلابة، تتدلى منها ثمار مستديرة من نور أخضر، تطوّقها كُرات زجاجية شفيفة رقيقة. تسحبه الدوامة الناعمة مجددا، تلفظه على سريره منتعشا.

(١٣)

كسلا، في الطريق إلى مطار الخرطوم.

تصدح الأغنية السودانية في الحافلة:

«عِزَّ التوبْ وِقِت ينشال ويتفرّا.
وعلى الكتفين يتيه مرّة، يتوه مرّة.
يِزغرد شوق، وشلّال فرحة يِنْشَرّا.»

يطالع مشعل النيل. يتذكر مقولة «السودان سلَّة غذاء العالم العربي.». تتهشّم الصورة التقليدية عن إفريقيا التي تعمر رأسه منذ سنوات؛ أرض قاحلة لا ماء ولا نبات، أرض سمراء متشققة من فرط الجفاف، أرض يباب، أكلة لحوم البشر، تماسيح تتمشى على الضفاف وتلتقم العابرين. من أين أتى كل هذا الهراء؟ يتمنّى لو أنّ هناك سببا واحدا يمكن أن يُعزى إليه كل تقهقر العرب.

يلمح امرأة تحصد شيئا من حقل مفعم بالخضرة. تخمّر رأسها بالـ«توب» السوداني. يعسر عليه أن يفهم كيف تحافظ عليه دون أن يقع. يبدو وجهها الأدلم مبتهجا رغم أنف كل شيء. يجرّه وجهها إلى وجه لقمان. في الفصل الدراسي الماضي، سجّل في مقرر «الثقافة الإسلامية» وهو مقرر اختياري عام تقدّمه كلية الشريعة لكل طلبة الجامعة، مما يعني أنّ طلاب الشعبة يأتون من تخصصات مختلفة، بل ومن كليات مختلفة أحيانا.

كان يوما غائما من أيام شهر ديسمبر، في الأيام الأخيرة قبيل الاختبار النهائي. خطر للأستاذ أن يخصص آخر محاضرتين للنقاش العام حول ما يدور في خاطر الطلبة. إحجامٌ، تواطؤٌ على الصمت، طمعٌ في أن يلغيَ الأستاذ المحاضرة ويُفرج عنهم.

رفع لقمان يده سائلا، لقمان النيجري المستجد الذي يدرس اللغة العربية في كلية الآداب عبر منحة دراسية، لقمان الذي يتكلم الفصحى أفضلَ من كثير من العرب!

بحث لقمان عن الآية في هاتفه، وسأل:

– دكتور، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ

بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون﴾ هل هذا يعني أن الوجه الأبيض خير من الأسود؟ وما ذنب الذين خلقهم الله سُودا؟

تململ بعض الطلبة، غمغموا امتعاضا على سؤاله الذي ضيّع فرصة إلغاء المحاضرة. ضرب الأستاذ الطاولة بطرف قلمه قائلا:

- ذروه يسأل!

تابع لقمان:

- وهناك حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنّ الحجر الأسود كان أبيضَ ثم سوّدته خطايا بني آدم. لماذا ملابس الإحرام بيضاء، وكذلك الكفن؟ أعلم أنّ الأمر كناية، كثير من الثقافات ترى البياض رمزا للخير والنقاء والطهر، والسواد رمزا للشر. لكن لماذا اختار الله أن يرمز للشر بالسواد؟ لماذا استعمل الله الكنايات الدارجة لدى الناس؟

دُهش الجميع؛ لقمان الطيّع الذي يصمت حينما يلّح جميع الطلبة على الدكتور كي يمنحهم يوم إجازة قبل الاختبار، لقمان الحاصل دوما على درجات كاملة، لقمان الذي يكاد يكون

الوحيد الذي يقرأ الفصل المقرر من الكتاب قبل المحاضرة، لقمان الذي يتكلم الفصحى كما لو كان طالب علم شرعي لولا لكنته الإفريقية الثقيلة، لقمان يسأل سؤالا يبدو كُفريا. أخذ الطلبة يجلبون، يمتعضون، يحدّجونه بنظرات قاسية، بعضهم امتعاضا على السؤال، والبعض الآخر على تضييعه فرصة إلغاء المحاضرة! في حين جعل بعضهم يشمت في سرّه بلقمان المجدّ المجتهد الذي وقع أخيرا، وسيفقد ثقة الدكتور فيه.

لم يكن الدكتور الشاب يتوقّع سؤالا كهذا! شعر بسخونة في أذنيه. سمح للطلبة أن يستمروا في جلبتهم قليلا مستغلا الوقت في تدوين ملاحظات سريعة على ورقة كانت أمامه، ثم دقّ على الطاولة بحسم أكبر هذه المرة وقال:

- بداية يقول النبي عليه الصلاة والسلام «إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»، لذا ما كان من داعٍ أن تشنعوا على زميلكم حين سأل، هذا الدين لا يخشى الأسئلة أو النقاشات!

صمت الطلبة تماما، بعضهم حرجا واقتناعا، والبعض الآخر خوفا.

- بداية علينا أن نفهم أنّ العرب أو غيرها من الأمم حين كَنّتْ

عن الشر بالسواد، وعن الخير بالبياض لم يكن لها قصد عنصري بالضرورة، بل الأمر نابع من النور والظلام. الظلام وهو سواد بطبيعة الحال يقتضي عدم القدرة على الرؤية، وعدم القدرة على ممارسة شؤون الحياة، في حين أن النور يقتضي القدرة على النظر وعلى متابعة الحياة. ولهذا قال الله تعالى عن من كسبوا السيئات ﴿... كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ...﴾ فالترابط بين السواد والظلام وعدم القدرة على الرؤية واضح. ولنلاحظْ هنا أن النور ليس أبيض! لا أعلم حقيقة ما لون النور! قد يكون شفافا أو ما شابه ذلك. ما لون الضوء بالضبط؟

أجاب طارق على الفور:

- الأمر يعتمد، نور مصابيح النيون أصفر مزرق مثلا!

غرق الجميع في كركرة، استمرت أطول مما ينبغي، بفعل بعض الأشقياء الذين ما عدموا الأمل أن يُحدث ذلك انقطاعا يقود إلى إلغاء المحاضرة.

- لكن وكي تجد العرب مقابلا للسواد باعتباره ظلمة، اختارت الأبيض باعتباره الأقرب إلى لون النور ... خاصة أن مصابيح النيون لم تكن معروفة آنذاك!

همس عبد الرحمن لمشعل الذي كان يجلس بجانبه:

- علميا، السواد غياب اللون والضوء، بعكس البياض الذي هو في حقيقته ضوء. هل تتذكر تجربه المنشور حين يمر به الضوء فتتفرع منه ألوان قوس قزح؟ الضوء، البياض أصل الألوان.

حضّ مشعلٌ عبدَ الرحمن على أن يخبر الأستاذ بهذه المعلومة، لكن الخجل غلبه.

- إذا فهمنا أنّ العرب كنّت عن الخير بالبياض، وعن الشر بالسواد، نفهم أنّ المقصود بابيضاض الوجه واسوداده هو الكناية عن حُسن العمل أو سوئه. وإذا رجعنا إلى سور أخرى نجد الله تعالى يصف وجوه من حسنت أعمالهم بأنها ناضرة، ومُسفرة، وناعمة، وضاحكة، ومستبشرة، وكنّى عن هذا بالبياض. وإذا كان الشخص أسود البشرة حسن العمل، سيجد وجهه يوم القيامة كذلك. وإن كان خبيث العمل أبيض الوجه أزهره، سيجد وجهه باسرا خاشعا عاملا ناصبا عليه غبرة ترهقه قترة. ولنعلم أن القلب هو محل نظر الرحمن.

صمت الأستاذ قليلا، التقط أنفاسه، ثم تابع:

- سألت يا لقمان لماذا استعمل الله هذه الكناية الشائعة لدى العرب؟ لم يأت الإسلام ليغير اللغة ونظامها. سأقول لكم شيئا، لكن علي أن أشكر من أقروا قانون منع الاختلاط، يمكنني الآن أن أتحدث دون أن أفتح أعين الطالبات وألسنتهم عليّ! لا تضحكوا كثيرا، درجات الطالبات أفضل منكم بكثير، وتفاعلهن أفضل، ولا يطلبن مني أن ألغي المحاضرات أو أخرجهن باكرا!

ضحكات شاحبة صدرت من الطلبة.

- لعلّكم لاحظتم أن العرب تغلّب المذكّر على المؤنث، فلو كانت لدينا جماعة من النساء وبينهن رجل واحد، لكان الحديث عنهم بصيغة المذكر، فنقول «ذهبوا، واذهبوا». واللغة العربية حينما تجمع غير العاقل، تصفه بصفة مؤنثة مفردة، فنقول «مقاعد وثيرة» وكأن مجموعة الجمادات إذا اجتمعت تعادل امرأة واحدة! بمعنى آخر، اللغة العربية فيها إعلاء ضمني للرجل على المرأة، وهذا نتج جراء عقود أو قرون من الإرث الاجتماعي الذي انعكس على نظام اللغة. هل أتى القرآن ليجيء بلغة جديدة؟ اللهم لا. لقد استعمل القرآن العربية كما هي. هل هذا يعني أن الإسلام يحتقر المرأة؟ معاذ الله! لكن تغيير نظام اللغة

قضية فرعية، شيء ينتج من تطور المجتمع وليس شيئا يأتي بجرّة قلم. لم يكن الإسلام معنيا بتغيير اللغة، بل بتغيير الفكر الذي ورائها، ويُفترض بها أن تتغير تلقائيا حينما تتغير الأفكار. ما أحمق مَن يكسر المرآة التي تعكس صورة الغول ظانا أنه نال من الغول وصرعه! فليَقتل الغول، وستعكس المرآة-اللغة صورة هلاكه. وعلى هذا فلنقس مسألة الكناية عن ابيضاض الوجه أو اسوداده. والمهم يا رجال، أن لا تعلم الطالبات عن شيء مما قلته للتو، وإلا لغيّرن نظام اللغة من جذوره. وإنّ الكويتية إذا أرادت شيئا أنفذته، وستتأكدون من هذه الحقيقة إذا تزوجتم. لذا حفاظا على استقرار اللغة، الزموا الصمت رجاء!

أخذ الطلبة يضحكون إلى حد أفقد الجمع توازنه، كل هذه الحيوية شجعت عبد الرحمن قليلا، رفع يديه طالبا الحديث، أسكت الأستاذ الطلبة بصعوبة. تلكأ عبد الرحمن قليلا ثم انطلق قائلا:

- دكتور، علميا للعيون الغامقة أفضلية! فالعيون الخضراء تملك أقل حاميات من الأشعة فوق البنفسجية مما يعني أنها تتضرر من أشعة الشمس أكثر من غيرها. لكن هذا لا يعني أنّ الله يكره ذوي العيون الخضراء! وعلميا يوجد خلل يمنع الجسد من

إفراز الصبغيات ويسمي هؤلاء الأشخاص بالألبينو وتعرضهم للشمس خطر كبير. ولونهم أبيض شديد البياض. هل هذا يعني أنّ الله يكره البياض، فجعل شدته مرضا؟ طبعا لا.

تدخّل تركي وهو الشاعر الضليع في اللغة:

- يسمى ذلك بالفصحى المَهَق، والأمهق والمهقاء صفته.

تفاعل الطلبة قدَح شرارة الدكتور. قرر أن يتوغّل في الموضوع أكثر.

- وثمة تفسير آخر وإن كنت لا أميل إليه كثيرا، وهو أن السواد هنا لا يعني اللون الأسود تحديدا، بل التغيّر الذي يقع على لون البشرة جرّاء الانفعال والفزع. يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. الصورة هنا صورة أب جاهلي يُخبر أنه رزق بمولودة؛ كيف يكون وجهه؟ في الغالب أحمر جرّاء الغضب والصدمة والانفعال ... أو الخجل! الوجه هنا ليس أسود تحديدا، لكنه أغمق من لونه الحقيقي، واختير السواد باعتباره لفظة جامعة لدُكنة اللون. الوجه في اللغة العربية يتمعّر، ويكفهر، ويمتقع، وكلها ألوان أغمق من لون السحنة الأصلية. فالامتقاع مثلا هو تغير لون الوجه من مرض

أو فزع أو حزن، والاكفهرار يعني التجهم لكنه أيضا يعني ظلمة الليل، ولهذا يقال اكفهرّت السماء، والتمعر صفرة تعلو الوجه من مرض. الآن، هل يجوز للآسيويين الشعور بالإهانة لأن العرب ترى أن المريض يصفرّ لونه؟ في الحقيقة لنكون منصفين، وجه المريض ليس أصفر بالمعنى الدقيق بل هو شاحب، و...

رفع طارق –الذي يدرس اللغة الإنكليزية– يده مقاطعا الأستاذ:

– في اللغة الإنكليزية، يرتبط المرض باخضرار لون الوجه! ولهذا نرى في الرسوم المتحركة أو وجوه الشخصيات مثلا تنقلب خضراء عند المرض أو التقيؤ. وكذلك في حال الحسد، فيقال Green with envy، ولدى الفرنسيين تعبير مشابه. وشكسبير في وصف الحسد بأنه «المرض الأخضر» و«الوحش ذو العين الخضراء». كنت أقرأ رواية «رسائل من تحت الأرض» للأديب الروسي دوستويفسكي، واكتشفت أن الروس أيضا يستخدمون التعبير ذاته، إذ يقول البطل «يصبح وجهي أخضر من شدة الحسد». ويقال في الإنكليزية عن الشخص المكتئب إنه أزرق، والجبان أصفر، والخائف أبيض!

ندم الدكتور لأنّه لم يتيح محاضرة مفتوحة مثل هذه من قبل، محاضرة استخرجت كنوزا من هؤلاء الطلبة التي يبدو عليهم عدم الاكتراث والكسل.

إقدام طارق حمل عبد الرحمن على استخراج نفسه مجددا من شرنقة خجله. المعلومات العالقة في ذهنه من السنة والنصف التي قضاها في كلية الطب قبل أن يتحوّل إلى كلية العلوم دفعته إلى التحرر:

- علميا، يحمرّ الوجه لدى البعض بسبب الغضب أو الخجل أو الانفعال بشكل عام، تأثرا بلون الأوعية الدموية التي يصلها المزيد من الإمداد نتيجة علو سرعة ضخ الدم. ويشحب الوجه في حال الخوف فيغدو أكثر ابيضاضا بسبب هروب الدم منه إلى أعضاء أكثر أهمية لمجابهة مثير الخوف. ويصفرّ الوجه والعينان بسبب مرض اليرقان. وتزرقّ البشرة لدى البعض في البرد بسبب انقباض الأوعية الدموية في سعي للجسم إلى تقليل سطح الأوعية المعرض للجو البارد، وبذلك يحتفظ بدفئها. والعكس يحدث في حال السخونة. أما الأخضر، فلا أجد له سندا علميا.

تحمّس تركي مجددا، فأضاف دون أن يستأذن:

– على ذكر اللون الأخضر، تسمّي العرب الأخضرَ أسودَ، ويقال «سواد العراق» في دلالة على كثرة خضرته حتى يخيل للرائي أنها سوداء. ولو كانت الوجوه المريضة خضراء كما قال طارق، لأمكننا أن نقول أنّ اسوداد الوجه يعني في الحقيقة خضرته!

تحول الأمر كمباراة ودية بين العربية والإنكليزية والطب، قطعها الدكتور بقوله:

– أثناء دراستي في المدينة المنورة زاملت طلبة من الصين، وكانت بشرتهم بيضاء لا صفرة فيها أبدا! وزاملت إندونيسيين وكانت بشرتهم أقرب إلى السمرة المحمّرة أحيانا. وحتى إذا نظرنا إلى أهل شرق آسيا كالفلبينيين، سنجد أن بشراتهم أقرب إلى اللون «البيجي» الفاتح منها إلى الصفرة. لا أعرف لم سمّوا بالصفر؟ حسنا، ما رأيكم أن يكون هذا واجبا عليكم تسليمه في المحاضرة القادمة: لماذا يسمى الآسيويون بالجنس الأصفر؟ وهل كل اللغات تدعوهم بذلك؟ وهل يدعون أنفسهم بذلك أيضا؟

ضجّ الطلبة مستنكرين تمنّع الأستاذ عن تلبية مطلبهم.

– سألغي الواجب في حالة واحدة؛ أن يقول لقمان إنّ الإجابة

عن سؤاله كانت وافية.» هزّ لقمان رأسه وهو يبتسم ابتسامة واسعة أبرزت أسنانه شديدة البياض.

(١٤)

كسلا، في الطريق إلى مطار الخرطوم.

ترجرجُ الحافلة يحمل روعة على التبسّم انصياعا للذكرى؛ مغامرة الصيف الماضي المجنونة. أتتها سارة في مطعم الطالبات في الموقع الجامعي في منطقة كيفان. رغم اختيار كل منهما لتخصص مختلف، إلا أنّهما لم تطيقا الافتراق، فعمدت سارة التي تدرس الإعلام وتحضر محاضراتها في الموقع الجامعي في منطقة الشويخ إلى اختيار تخصص روعة -اللغة الإنكليزية- تخصصا مساندا لها. هكذا يمكنها التسجيل في بعض المقررات معها، أو على الأقل الالتقاء بضع مرات في الأسبوع في أوقات الفراغ.

أخذت سارة الجامحة كعادتها تشكو لروعة تخوّفها من دكتور أحد مقررات تخصص الإعلام الصعبة. طلب منهن «تقريرا صحافيا يستفزّ إنسانيتنا»، هكذا رماها في وجوههن دون خارطة تدلّهن. اكتشفت أن ربع طالبات الشعبة قررن الذهاب إلى سجن النساء، أو دور الرعاية الاجتماعية للمسنين أو الأيتام. وجدت

سارة نفسها عاقرة من الأفكار. نظرت روعة إلى الأمر ببرود تام كعادتها، استرخت وهي تمزمز عصير الكوكتيل، وتنظر إلى حافلات الـ«ميني باص» التي تنقل الطلبة بين المواقع الجامعية. غيمة خيال فجائية تغشّي وجهها: «لاقيني اليوم بعد المغرب في مجمّع البحر، ولا تسأليني عن التفاصيل الآن لأني لن أجيبك!» لم تشعر سارة بالاطمئنان، فروعة المتحفظة والانطوائية لن تقترح مغامرة يمكنها أن تضمن لها الـ٣٥ درجة المخصصة لهذا التكليف. عليها إحراز درجة ممتازة في هذا المقرر لتحافظ على معدلها المرتفع حينما تتخرّج الفصلَ الدراسي القادم. حضرتْ إلى المكان مستخفّة بطلب روعة، حتى أنها لم تحضر كاميراها الاحترافية معها. أوقفتا سيارتيهما في مواقف المجمّع، ثم طلبت منها روعة أن تتبعها. أخذتا تجوسان في شارع تونس المختنق بروائح بالبنزين، والديزل، والعرق، والأنفاس المثقلة، في منطقة تجارية شعبية نوعا ما.

«جهزّي ربع دينار.» أمرتها روعة وهي تخفي ضحكة خجلى ممزوجة بشيء من التردد المتأخر. حدست سارة بأن روعة دبرت لها لقاء بمتسوّل، لكن المتسوّلين ما عادوا يقبلون مبالغ بسيطة كهذه. أو أنّها ستقودها إلى بائع متجول للمثلجات تشتري منه

ثم تجري معه حوارا. صَعُبَ عليها التفكير في هذا الجو الحار. انصاعت، وأخذت تنبش في محفظتها. قَطَع بحثها المفاجأة تلقيها روعة في وجهها: «هيّا، هيّا، علينا الصعود بسرعة. السائق لن ينتظرنا.» شُدهت سارة لثوان، جذبتها روعة من يدها، معمورة بالإرهاق والصدمة والعرق والأجساد المتزاحمة للصعود وتلك الخارجة من الباب، لم تتمكن سارة من الاعتراض.

تزاحموا عند سائق الحافلة الذي يعمل عمل المحصّل أيضا. أغلق الباب، وشرع يسيّر الحافلة وهو يتقاضى من الداخلين الأجرة ويقطع التذاكر. «هيه، هيه!» صرخ السائق وهو ينظر في مرآته الكبيرة في الرجلين الجالسين في المقعد الأمامي المخصص للنساء والذين تظاهرا بأنهما لم يريا الفتاتين.

«قد يكون دكتورك ركب حافلة في لندن. أمّا في الكويت، فسيكون لك قصب السبق!» قالتها روعة برويتها وصوتها الخفيض. «أنت مجنونة!» صرخت سارة فيها.

أخذت تتأمل قشور الحب الشمسي الملقاة أرضا. ترجرج الحافلة غير المريح دفع سارة لأن تسأل سائقها إلى أين تتجه. «فاهاد سالم» أجابها. «صباح السالم قصدك؟» هزّ رأسه نفيا. «عبد

الله السالم؟»، هزّه متململا منها «فاهاد سالم، فاهاد سالم». همست لروعة، «يبدو أن هناك منطقة جديدة اسمها ضاحية فهد السالم!» أسعفها السائق بإضافته: «فاهاد سالم ستريت، كويت سيتي!»

استظرف السائق جهل سارة الواضح، استنتج أنّها قادمة للكويت حديثا. أخذ يثرثر لها عن التحول الذي حدث عام ٢٠١٢ حين رفعت شركات النقل الجماعي الثلاث أسعار التذاكر خمسين فلسا. مبلغ يبدو زهيدا، لكنه كان قصمة لكثير من ذوي الدخل المتواضع المعتمدين على الحافلات في تنقلاتهم.

سُمرة سارة، ولبسها الأنيق، وشيء من العنجهية غير المقصودة في كلامها دفعت السائق ليسأل: «From Where?» كرّر سؤاله حينما تظاهرت بأن الحاجر البلاستيكي الشفاف المعمور بالإعلانات يحجب الصوت. مدت روعة عنقها وقالت بصوت عالٍ «From Khaldiyah!» صُعقت سارة، كتمت ضحكتها، وأفرغتها بالضغط على الجرس طالبة النزول.

«أحتاج إلى الكاميرا!» تذرعتْ. «صوّري بالهاتف النقال، كاميراك الشبيهة بالمدفع ستثير تحفظ الموجودين!» أخذتا

تتعاركان كعادتهما. «انظري كيف ينظر إلينا السائق الوقح هذا. الوضع غير مأمون. علينا النزول!» بربرت/ برّرت سارة. «ينظر إليك وحدك! انظري إلى أحمر شفاهك الفاقع.» ردّت روعة مخرجة لسانها. «أفضل من وجهك المليء بالنمش!» استمرت نوبة «الضَّغَاط» إلى أن نزلتا في نقطة أبعد في منطقة حولي، والسائق يضحك ويشير بيده نحو رأسه للجالسين عبر مرآته واصفا الفتاتين بالجنون. مضت الحافلة المتلفّعة بإعلان لأحد المنتجعات البحرية الباهظة التكلفة.

«عندي فكرة أفضل. فلنشترِ سلعا رديئة من المحلات المتواضعة هنا. نحمل الأكياس الثقيلة، نشتري عشاء من مطعم مغمور قد يصيبنا بالتسمم، ثم نعبر الشارع ونبحث عن المحطة التي تعيدنا إلى شارع تونس، نقف في الحر الدبِق والغبار المتطاير إلى أن يصيبنا العطاس والسعال. هكذا يمكنك أن تقولي لدكتورك بأنك عشت تجربة من يستعملون المواصلات العامة بحذافيرها!» ألقت روعة الفكرة-القنبلة وهي لا تزال تحتفظ بوجهها الأنمش المسالم المطواع. «من أين تأتين بهذه الأفكار؟!» صرخت فيها سارة. «أنت مجنونة! والكارثة أن كل الناس يظنونك هادئة وبريئة!» قالت سارة لروعة، كما قالت لها آنفا

حينما استولت روعة خلسة على بطاقتها المدنية وسجّلتها معها في الفريق التطوعي ووضعتها أمام الأمر الواقع. «عليكِ جمع تبرعات بعشرة آلاف دينار كي نسافر سوية إلى إفريقيا!»

غِمار

«يحتاج الكاتب إلى فضول الهررة، وخيال الأطفال، وعزلة النسّاك.»

(روعة)

(١)

مطار الخرطوم.

يشنّع عليه رفاقُه مازحين: «ولاء مزدوج يا دكتور؟!» يقهقه معاذ: «في الخير مثنى وثلاث ورباع، ولا حرج!» يزيد تركي في «الضَّغَاط» بقوله:
«تكاثرتِ الظباءُ على خِرَاشٍ * فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ!»

في جيبوتي، سيفترق معاذ عن صحبه وينضمُّ إلى فريق «مخيّم الأمل الجراحي» الذي تشرف عليه جمعية العون المباشر. في كل عام، يزور فريق طبي متطوع من الكويت دولة إفريقية، حيث يُجرون جراحات مجانيّة. وهذا العام وقع الاختيار على جيبوتي. سمع معاذ من زميل شارك في رحلة سابقة أنّهم تفاجؤوا بأنّ أحد المستشفيات يعقّم أدوات الجراحة بغليها في قِدر طهي! يطرد معاذ القلق عن صدره. يحاول، يحاول.

«أخبرنا عن شعورك في هذا الموقف دكتور.» يمد غانم هاتفه

نحو معاذ متصنّعا دور المذيع التلفزيوني وهم في طابور تسليم الحقائب واستلام بطاقات الصعود. يتنحنح معاذ قائلا: «شعور الصقر! أنّى له أن يستقر وهو ابن الأعالى؟» يصطنع بعض الفتيان تصفيقا حارا، «يبدو أنّ ثمة شاعر مختبئ في ثياب الأطباء!» يقول تركي بنبرة مسرحية. لا يدري غانم أن قولته أَسْرَت في عروق قلب معاذ تيارًا عاليَ التوتر.

يفرغون من تسليم الحقائب، ييمّمون صوب مقاعد المطار يبحثون عن بقعة فارغة تضم أكبر قدر منهم. يتموقع غانم بين رفاقه الجالسين، يقلّد اللهجة السودانية: «ديما رغم تزعة لفتح الخط». أدركوا من الأيام الفائتة أنّ السودانيين -كالكويتيين- يقلبون القاف غينا أحيانا، ويقلبون السين زايا أحيانا أيضا. يُسكته رفاقه خوفا من أن يسمعه أحد. يطمئنهم أنّهم لن يغضبوا منه لأنه «خال» مثلهم. يستمر مقلّدا: «يا زول داير شْنو؟ نزبة اللجوء للغانون ما مرتفعة هسّع.» رغم قامته المديدة المستعرضة التي تمنحه هيبة، إلا أن ظرافة غانم واجتماعيته تحولانه إلى نجم أي تجمّع.

انقطاع الإنترنت عن هاتف مشعل نظرا لنفاد الباقة يجعله يُخرج الشريحة السودانية ليثبّت الكويتية مكانها. ينقّب في جيوبه،

يفتش حقيبته، يصاب بذعر كبير حينما يبحث ولا يجد الشريحة الكويتية. يطمئنه صحبه أنها حتما موجودة في حقيبة سفره التي شُحنت إلى مستودع الطائرة. يشعر مشعل بأن ضياعها حدث لسببٍ، سببٍ يعرفه جيدا وكان يتوقعه. كان ينتظر الإشارة، وها قد جاءت!

(٢)

مطار الخرطوم.

تفترق سارة وروعة عن الرَّكْب وتتجهان إلى كشك يبيع المشروبات والأغذية الخفيفة في المطار. يخيّل إلى سارة الواقفة في طابور الطلب أنّها لمحت طرف عباءة خلفها. تستغرب الأمر، كونها وزميلاتها تجنبن الأسود درءا للفت الأنظار، وتوقّيا لحرارة الشمس. تلتفت بحذر، ترى امرأة تتجلبب بالسواد، تختمر بالبياض، تتدلى من نحرها سلسلة فضية مختومة بصليب. راهبة خلاسية، يظهر العِرق الإفريقي واضحا في قسمات وجهها، في حين أنّ بشرتها تبدو أقرب إلى لون القهوة الممزوجة بالحليب. تتبسم الراهبة قائلة: «طابور الانتظار طويل، لكن الصبر فضيلة. هكذا علمنا يسوع.» تبادلها سارة الابتسامة، «عليه السلام. نحن نحبّ يسوع!» ترد عليها «يسوع يحبّكم، يحبّ الجميع.» تلتفت سارة إليها التفاتة كاملة، لا يمكن لسارة أن تقاوم الثرثرة، تتمنّى لو يطول الحوار. «يبدو أن لدينا الكثير لنتكلم

عنه. هلا جلستِ قربنا؟ يوجد مقعد فارغ قرب صديقتي كما ترين هناك.» تهز الراهبة رأسها معتذرة، «أشكرك. لكن هذا المقعد أصغر من أن يسعني ورفيقيّ!» تضحك وتشير إلى حيث يجلس قسيس وراهبة.

ما تكاد سارة تخبر روعة بحوارها مع الراهبة، حتى تُبرز روعة وجهها النادر؛ الوجه المغامر. «إذا كان مقعدنا لا يتّسع لهم، فإنّي أرى مقعدين أينعا وحان قطافهما!» تشير روعة إلى خلو المقاعد المحيطة بالثلاثة. تشعر سارة بالتردد، التطفل عليهم يقلقها، وروعة التي أصابتها نوبة جُموح تستحثها على فعل جنوني. «سأجلس على المقعد أيمنهم وأنتِ على الأيسر، هكذا نحيط بالجماعة!» تقول روعة بنبرة آمرة ممزوجة بأسلوب عسكري فكاهي. تقهقه سارة، تنصاع.

يستغرب الرهط من دنو الفتاتين. تسألهم سارة إذا كان وقتهم يسمح بشيء من الكلام. ترحب روز، في حين تبدو الراهبة الأخرى ممتعضة، ويحتفظ القسيس بوقاره الحذر. تعرّفهما روز برفيقي رحلتها الأب فرانسِس والأخت ميشيل. يبدأ الحوار بالحديث المعتاد عن الطقس، والزحام، وتأخر الطائرات. «أنتما أيضا في الطريق إلى الصومال؟» تسألهما روز. «بل إلى جيبوتي،

عبر أديس أبابا.» يمر الثلاثة مرورا سريعا في السودان لبعض الأعمال، لكنّ الصومال وجهتهم الأساسية. يأخذ فرانسس يشرح مدى المأساة التي يعيشها الصومال. ينساب الحديث الذي تظل ميشيل بعيدة عنه، تكتفي بتكتيف يديها تكتيفا لا يقطعه سوى احتساءات القهوة، وهي مخفضة ذقنها نحو صدرها، متفحصة الفتاتين بقلقٍ بعينيها المدورتين الجاحظتين جحوظا لطيفا من وراء نظارتها المستطيلة.

«أعلم أنكما مسلمتان من زيكما.» يقول فرانسس، القسيس النحيل الطويل، ذو البشرة الدلماء والعينين الزرقاوين المشعّتين. تهزّ سارة رأسها قائلة: «أليس عجيبا أننا نرتدي زيا مثل زي الراهبات، يبدو أن الكثير يجمعنا بخلاف ما يعتقد الكثيرون.» تقطع ميشيل الحوار: «لكنّ يسوّع جاء بالرحمة والحرية، ودينكم يحضّ على العبودية. كتابكم المقدّس يتكلم عن الرقيق وأحكامهم، مما يعني شرعنة للاستعباد. اعذراني، لكن الأمر حساس بالنسبة لي باعتباري أمريكية سوداء. لقد عانينا الكثير، وأشعر بالإهانة من أي فلسفة أو دين أو توجّه فكري يسمح لنفسه أن يستعبد البشرُ البشرَ!» تتدخل روز: «الأخت ميشيل لا تقصد قطعا إهانة دينكما، لكن ...» تقاطعها سارة «لست

مضطرة للاعتذار. هذا رأيها، لا نحن ولا ديننا نتضايق من السؤال أو النقد. هناك كتاب للدكتور جيفري لانغ عنوانه 'حتى الملائكة تسأل' وفي العنوان إشارة إلى سؤال الملائكة اللهَ عزّ وجلّ عن سبب اختياره البشرَ لخلافته في الأرض وهو يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء. لمْ يعاقبهم الله تعالى على سؤالهم. وإذا كانت الملائكة –وهم المبرَّؤون المطهّرون– جرؤوا على السؤال، فكيف لا يجوز للبشر أن يفعلوا؟» يبرُد الجو الحامي قليلا.

تشعر روعة بأن عليها التقاط خيط الحوار. كم يعسر عليها الدخول في حوارات اجتماعية، حتى لو كان لديها كلام كثير. تتذكّر أنها من رمت بها وبصديقتها في هذه الحوار، تقشّر عنها شرنقتها، وهي تشكر لأبويها اللذيْن ألحقاها بمدرسة ثنائية اللغة. تنطلق روعة: «البشرية تمر بمراحل نضوج لا يجوز القفز عليها. لا بد للبشر أن يناضلوا حتى يستحقوا الرقي والنضوج والاتساع الذي يصلون إليه. وأمور المجتمع البشري لا تُحل دائما بجرة قلم. هل ينكر أيّ منا أن كون دساتير الدول الإفريقية تتحدث عن الديموقراطية قيمةً عليا لا يعني بالضرورة أنّ شيئا من هذا يُمارس؟ لماذا؟ لأن الأمة لم تنضجْ لتعيَ الديموقراطية

وتمارسها بشكلها السليم.» تهز روز رأسها متجاوبة، يصمت فرانسس، في حين يظل وجه ميشيل محايدا. «فلنتلكم عن إلغاء العبودية في أمريكا مثلا. دعوني أسألكم، لماذا كانت الولايات الشمالية متحمسة للفكرة بعكس الجنوبية؟» يجيب فرانسس «الاقتصاد. كان شعار كلينتون في إحدى حملاته 'إنّه الاقتصاد أيها الغبيّ' في إشارة إلى أهمية الاقتصاد. الولايات الجنوبية كانت زراعية ومعتمدة على الرقيق آلةً للنشاط الاقتصادي، ومن الطبعي أن تعتكر لفكرة حرمانها من مصدر رزقها.» تهز روعة رأسها: «بالضبط. لم تصل الولايات الجنوبية للنضج المجتمعي الكافي حتى تنضو العبودية عن ساق اقتصادها. كان أمام الأمة الأمريكية آنذاك حلان؛ إمّا الانتظار حتى تنضج بنفسها، وإمّا القرار الجريء بأن تُنضج جبرا. واختار أبراهام لنكن قرار الإنضاج الجبري. قرار مكلف لكن لا نملك إلا الإعجاب بشجاعته. والآن قولوا لي، هل نضجت الولايات الجنوبية بهذه السهولة؟ لا بالطبع، لقد استغرق الأمر سنوات حتى حدث ذلك. طبعا لم تخرج الولايات الجنوبية مقتنعة بفكرة إلغاء الرق، بل مستسلمة لها بعد أن أنهكتها الحرب. كانت مغامرة، كانت مخاطرة، ونجحت. لكن هل عنى هذا أن من كان بعضهم عبيدا في يوم ما صاروا مواطنين كاملين؟ أنتم خير من يعرف

كم ناضل الأمريكيون من أصول إفريقية كي ينالوا مساواتهم مع بقية المواطنين. لقد عانت الأمة الأمريكية كثيرا لتنضج فيما يتعلق بالعبودية، لقد ناضلت.»

تحتسي روعة القهوة لا لترطب ريقها، بل لتمنحهم مجالا للتفكير فيما قالت. حيلة تعلمتها من أحد أساتذتها. تتابع روعة: «في عالم كان قائما بشكل فاحش على الرق، كان انتحارا أن يلغي الإسلام الرق. كان الرق آنذاك مؤسسة اقتصادية واجتماعية. لو فعل، كان الإسلام سيستعدي أمم الأرض عليه، وسيلقي بنفسه إلى التهلكة، وسيجر نفسه إلى معركة فرعية هو في غنى عنها. اختار الله لأمة الإسلام أن تتخلص من الرق نضوجا لا إجبارا. رغّب الإسلام في تحرير العبيد بطرق متعددة. أولها أنه منح العبد حق تحرير نفسه من خلال ما يسمى بالمكاتبة، وهي أن يحصل على حريته بمقابل.» يقاطع فرانسس روعة مستفسرا: «هل هذا وارد في كتابكم؟» تتدخل سارة «نعم، في سورة النور. وفي هذه السورة يحث الله الذين يعتقون عبيدهم أن يؤتوهم مالا كي يعينوهم على التحرر منهم! أي أن القرآن يقف في صف العبد لا في صف السيّد.» تتابع روعة: «كما أنّ الله جعل عقوبة بعض الذنوب أن يعتق المذنب عبدا. ومن يضرب عبدا أو يلطمه،

فإنّ عقوبته أن يُعتق هذا العبد. كما أنّ الله في القرآن أمر أن يعامل أسرى الحرب –وهم تاريخيا مصدر رئيس للعبيد– إما بالمنّ بالعتق دون مقابل، أو بفداء العبد نفسه وشراءه حريته. ومن مصارف الزكاة عتق الرقاب أي تحرير العبيد، والزكاة شيء يمكن أن نسميه تبسيطا بضريبة المدّخرات. أيْ يمكنك أن تحتسب الزكاة المستحقة عليك وتعتق بها عبدا. فضلا عن ذلك، هناك طائفة كثيرة من الأقوال لنبينا محمد –عليه الصلاة والسلام– ترغّب في تحرير العبيد. ثم فكروا كيف كان سيكون الوضع لو أن الإسلام حرّر العبيد فجأة. جيش من العاطلين عن العمل، جيش من المجرمين المحتملين! كان ينبغي للأمر أن يحدث بروية.»

تعود روعة لشرب القهوة، هذه المرة لترطب ريقها وحسب. تتذكر شيئا فجأة: «أَوَتعلمون أنّ كلمة عبيد وإماء من الكلمات التي نهى نبينا عن استخدامها؟ القرآن الكريم يسميهم «مُلْك اليمين» والنبي وجّهنا لأن نقول عنهم غلمانا وجواريَ، أو فتيان وفتيات.» تقول روز: «آه، الكياسة السياسية!» [٢] تكمل روعة: «بل أن القرآن الكريم يخاطب البشر جميعا: أحرارا وأرقّاء بقوله

٢) **Political Correctness الكياسة السياسية: تجنب استخدام كلمات تجرح مشاعر فئة ما، فلا يقال مثلا «مُعاق» بل «ذو احتياجات خاصّة».**

إننا عباد لله وعبيد له. وكثيرا ما يخاطب الله المسلمين بقولهم «يا عبادي». هل تعلمون ان اسما شائعا لدينا مثل «عبد الله» يعني حرفيا أنه عبدٌ لله. لدينا الكثير من الأسماء المركبة المبدوءة بعبد، ولا يجد أحد غضاضة في ذلك.»

يشعر الجميع بأنهم خاضوا في لجة عميقة للتو، وبأنه يعوزهم بعض الصمت كي يجفوا. تبدو ميشيل أقل عدائية، لكنها لا تزال نائية. تفاجئ روز الجميع بخلعها للصليب المتدلي من رقبتها! ينعقد لسان سارة وتبدأ عيناها بالاغريراق، في حين تستعد روعة للهتاف «الله أكبر». تضع روز السلسلة في يد سارة قائلة: «هذه هدية مني، لديكم دين جميل، ويسوع كان سيكون سعيدا بكما لو أنه معنا اليوم.» يخيب ظن الفتاتين قليلا، تتمالكان نفسيهما، تبحثان عن شيء ترتُقان به خرق خيبتهما. تقول سارة: «يسوع، المسيح، عيسى بن مريم. نحن نحبه ونؤمن به. نؤمن بمريم العذراء البتول التي أنجبته دون أب. وكافر في ديننا من ينكر ذلك. لدينا سورة كاملة في كتابنا المقدس اسمها سورة مريم.»

تشعر الفتاتان أنّهما هذرتا كثيرا، وأن هذه الجلسة الودية تحولت إلى مناظرة معرفية، تفطن روعة إلى قلادتها المخفية تحت ملابسها. قلادة اشترتها من سوق المباركية بنصف دينار، لكنّ

شكلها فاتن وتبدو كما لو كانت مصنوعة من الذهب. تدس يدها تحت حجابها وتسحبها خارجا، طالبة من سارة أن تفكها لها. تقدمها هدية إلى روز. «ليس لأن عليّ رد الهدية، لكني فعلا أود أن تحتفظي بها.» تتبسم روز ابتسامة عريضة، وتسأل: «ما هذا الشيء المتدلي من السلسلة الذهبية الجميلة؟» تخبرها روعة: «هذه دلّة قهوة. في الكويت، نقدّم القهوة في وعاء كهذا، ونصبها في كؤوس صغيرة جدا. طعم القهوة العربية مختلف تماما. إذا زرتمونا في الكويت يوما ما، سيسعدنا أن نقدمها لكم. المطبخ الكويتي شهي جدا، يجب أن تفكروا جديا في زيارتنا!» يقهقه الجميع حتى ميشيل. يخطر لسارة أن تخبرهم أن كلمة «كوفي» الإنكليزية أصلها عربي، وكذلك الـ«موكا» التي تشربها روز الآن، وتجد نفسها متحمسة لأن تخبرهم عن مشروع «ألف اختراع واختراع»، لكن تشعر بأنها لا تريد أن تثقل عليهم.

يشرعون في تبادل أرقام هواتفهم. تملي كل من سارة وروعة هاتفيهما إلى روز وفرانسس، الذين يردان باتصال سريع على كل منهما حتى يُسجّل رقما هاتفيهما لديهما. في حين تكتفي ميشيل بإعطائهما بريدها الإلكتروني بكتابته على منديل المقهى السميك، متعمدة أن تكتب الصفر على شكل حرف o، والشَرْطة بطريقة

تجعل من يراها يحار بين الشَرْطة القصيرة – وتلك الطويلة _.

تستخرج سارة هاتفها لتحفظ الرقمين. تُصعق حين ترى ٣١ مكالمة فائتة لم تنتبه لها لوضعها هاتفها النقال على الوضع الصامت! تُري سارة سجل المكالمات لروعة التي تريها بدورها شاشة هاتفها المترع بمكالمات فائتة من رئيس الوفد ومن بعض الزميلات.

يفاجئ الجميع رجل في منتصف العشرينات، يرتدي قميصا أبيضَ وبنطالا من الجينز، ويضع على رأسه قبعة إفريقية تقليدية كالتي تباع في متجر التذكارات في المطار، وله لحية متوسطة، يحمل على ظهره حقيبة مكتنزة. يهرول الرجل تجاههم ويبدو عليه الاستعجال والغضب. يتجمد فرانسس وروز، في حين تلتقط ميشيل حقيبتها وتضغطها على صدرها وبطنها لتحمي نفسها بها. يصرخ الرجل في الفتاتين: «أين أنتما؟! حاولنا مرارا الاتصال بكما. ألا تسمعان النداء الأخير لرحلتنا؟!» أعظم همهما في هذه اللحظة ليس رحلتهما التي توشك على الفوات، بل تبديد الرعب الذي أصاب مُجالسيهما. تقول سارة وهي تصطنع الضحك: «لا تُراعوا، ليس إرهابيا مسلحا. هذا شقيق روعة. وهو غاضب لأنّهم أعلنوا عن النداء الأخير لرحلتنا.» تودعهم

الفتاتان، في حين تهمس ميشيل لرفاقها «يبدو أن الرجل غاضب لأنهما جلستا معنا، يبدو أن دينهم يحرّم ذلك. حمدا للرب لم يصبنا مكروه!» يهز فرانسس رأسه ميمنة وميسرة، في حين تضحك روز قائلة: «يبدو أنّك لن تتغيري أبدا يا ميشيل!»

ينهبون بخطاهم أرض المطار. روعة أبطأ الثلاثة، منشغلة بهاتفها النقال، تنسخ من أحد التطبيقات ترجمة معاني الآيتين ٨٢ و٨٣ من سورة المائدة وترسلهما برسالة نصية إلى روز وفرانسس وتحتهما وجه مبتسم وأيقونة وردة حمراء. يناكف روعةَ شقيقُها كالعادة: «ماذا تفعلين؟ هل عدتِ تكتبين رسائلَ إلى الموتى؟!»

(٣)

في الطائرة المتجهة من الخرطوم إلى أديس أبابا، ومنها إلى جيبوتي.

تتأخر الطائرة عن الإقلاع نظرا لتأخر أحد المسافرين. يعتذر إليهم القبطان واعدا إياهم ببدء عملية الإقلاع قريبا جدا. شيء ما يحمل غانم على التطوّع بعدّ الموجودين. يبدأ مسرعا من آخر الطائرة حيث يجلس، يجعل يعدهم وهو يهزل؛ يضرب كل واحد على رأسه قائلا: «رأس، رأسان، ثلاثة رؤوس. أضاحي العيد، أضاحي العيد، اللهم زِد وبارك!»، مهمته ليست سهلة لجلوس المتطوعين في مقاعد متفرّقة على امتداد الطائرة. يستمر في مهمته بمرح: «ثمانية رؤوس، تسعة رؤوس ... شعّول شَعرك طال، قصّه! عشرة رؤوس ...» يأمر غانم مشعلا الذي يمكن تمييزه من شعره المسترسل بإفراط. يستمر في العد، ثم يعلن بانتصار: «العدد كامل.»

يستاء ذو الشعر المسترسل من غانم، يردد شتائم باللغة الصينية في سره، يفرد قميصه ترابي اللون الشبيه بسترات الفريق، ويعود

يدفن رأسه في النافذة المجاورة له يتأمل المنظر!

(٤)

مطار الخرطوم.

يتذكّر مجددا عبارة أمّه: «ما يهلّ الخير والشمس طالعة». ليس كلّ غياب للشمس ليلا. ضاعت الشريحة كي تمنحه حجة ليتّخذ القرار الجريء الذي كان يهمّ به تارة ويحجم تارة أخرى. كان ينتظر أوْهَى إشارة كي يخطوَ خطوته المجنونة. يتحسّس الظرف المخبّأ في حقيبة ظهره، يتذكّر يدي جارهم الكفيف أبو مشاري وهو يشدّ على يديه، حاثّا إيّاه أنْ يضعه حيث أوصاه.

كان لا بد أن ينتشل نفسا عميقا ويقفز في اللجّة. ينسلّ عن أصحابه. يعلم جيّدا بأنّه لو صارحهم لثبّطوه. يخشى أن يخرج من المطار بطريقة نظاميّة. يشعر بأنه قد يُمنع أو قد يُستدعى أصحابه. يلمح فُرجة فجائية في الحواجز أحدثها عمال كانوا يثبتون إعلانا. يتسلّل منها، ويغادر المطار دون أن يُختم جوازه. يعدّ مشعل ذلك إشارة إضافية على صواب قراره. يشعر الآن

بالراحة إذ لديه حجّة وإن كانت مضحكة؛ ضاعت شريحة الهاتف الكويتية في كسلا، ولا يمكن استخراج شريحة بديلة إلا بالذهاب شخصيا إلى الكويت. إذًا لا بدّ من البحث عنها.

الدوامة الناعمة التي سحبته البارحة في منامه قذفت في قلبه التصديق بما جاء به الجار الكفيف؛ أتاه قبل وفاة عمه بساعات يخبره بأن فاجعة ستحل، لكنه سيمضي في عزم له. قال له إنّه سيبني دار قرآن في دارفور! لم يصدق مشعل ما سمع، فقال مازحا: «كارفور؟» ملامح وجه الرجل الهرِم الجادّة كانت كفيلة بالرد. ثم ناوله ظرفا يحتوي على خمسة آلاف دينار تكلفةَ الإنشاء. حينما سأله مشعل عن مصدر معلوماته، قال ببساطة: «رؤيا.» «لماذا دارفور تحديدا؟» سأل مشعل أبا مشاري الذي حكّ لحيته المخضّبة ثمّ أجاب باستخفاف: «وما أدراني؟ مهمتك أنت أن تكتشف ذلك!» رغم تخطيه الثمانين، ورغم كفّ بصره، وتقوس ظهره، ونطقه السين مخلوطة بالشين، إلا أنّ ذاكرته الحادّة وحديثه العذب المسترسل يمنحانه روحا تنبض بالشباب.

كانت نفسه تغالبه طوال الفترة الماضية أنْ يسلّم المبلغ إلى أحد المسؤولين ويوكل إليه المهمة. لكنّ مزيجا من الإحساس بالذنب وترصّد الإشارات كانا يمنعان مشعل. خمسة آلاف دينار،

حوّلها إلى دولارات حتى يسهل التعامل بها في بلد لا تُقبل فيه البطاقات الائتمانية. أكثر من ستة عشر ألف دولار تقبع في حقيبة ظهره، ولم يفطن إليها أحد. عدّ مشعل نفاذ النقود من الاكتشاف والمصادرة أو المساءلة إشارة إضافية بأنّ عليه أن يلبّي النداء بشخصه.

*****

لأن صِلاته في السودان لم تتوثق سوى مع تاج السر، يخطر له أن يعود إليه. يطول بحثه حتى يجد سائق أجرة يوافق على الذهاب به إلى كسلا. يبتهج حينما يتعرّف السائق مكان المقهى، ويُنزله قربه. يلوم نفسه بعنف، كيف فاته أنّه في موعد الوصول سيكون المقهى مغلقا؟ كان يخطط أن يذهب إلى هناك ويسأل عن بيت تاج السر.

لا شيء معه سوى حقيبة ظهره المكتنزة بالأوراق النقدية وقليل من الاحتياجات الشخصية. يجد نفسه في زقاق ضيق معتم لا يساعده على تلمّس الطريق حتى إلى الفندق الذي أقاموا فيه. يشهق ثم يزعق خوفا حينما يشعر بيد تخبط كتفه! رجل يسأله عما يفعل هنا ولا زالت ثلاث ساعات تفصلهم عن صلاة الفجر.

وما أن يخبره باسم تاج السر، حتى يعرض عليه أن يقوده إلى بيته. يفهم منه أن الرجل معروف هنا ومحبوب.

يودّ لو يدقّ الباب بلطف عسى أن يكون أحد مستيقظا، لكنّ الحرج يمنعه. يهيّئ نفسه للمبيت خارجا إلى أن يحين موعد الفجر. يتفاجأ بأنّ هناك من يفتح الباب!

(٥)

بيت تاج السر، كسلا.

«سبحان الله! كنت أفكّر فيك قبل قليل. خلتك سافرت!» يقول له تاج السر وهو يفتح عينيه باتساع. الخشخشة التي أحدثها قدوم مشعل نبّهت تاج السر السهران خلافا لعادته اليومية في النوم باكرا. «غادر صحبي، أمّا أنا فلم يُكتب لي المغادرة بعد.» يرد مشعل.

ينتبه تاج السر أنّهما يتكلّمان عند الباب. يدعوه للدخول وهو يدله على الطريق بسراج يحمله في يديه. «دعوت الله أن نلتقى، يجب أن أعيد لك ما فقدتَه.» يفاجئ تاج السر مشعلا بالشريحة الضائعة. «كنت أعلم أنها في كسلا! لكنها حقيقةً ليست سبب عودتي.» يهمّ تاج السر أن يخبره بأنه سيذهب إلى المطبخ لإعداد الشاي لهما، فيفاجئ مشعل تاجَ السر بقوله: «أريد أن أطلب منك معروفا. أريد الذهاب إلى دارفور.» يشهق تاج السر، «دارفور؟! هل...» يقاطعه مشعل: «لا تعلم مدى أهمية الأمر،

عندي أمانة ويجب أن أوصلها هناك. سينفطر قلب هرِم مسكين إن لم أفعل.» يستغرب تاج السر: «يا ولدي، كان من الأسلم لو طلبت من الفريق الذي أتيت معه أن يرتّب لك زيارة.»

يصمت مشعل، يتنهد، يردّ: «في الأمر فيض من الرؤى، كلها تقول بأنه أمر عليّ أنا أن أذهب بنفسي.» يتفرّس تاج السر في وجه مشعل، يزأر فيه: «هل تعلم ماذا ينتظرك هناك؟ دنيا أخرى يا ولدي!» يردّ مشعل بحماسة: «لا ضير! لأخوّضنّ في المستنقعات، ولأعاركنّ التماسيح، ولأصابنّ بالملاريا، ولألقينّ بحقيبتي المدججة بالديتول في القمامة. ذرني أنطلق رجلا حقيقيا كأولئك الأبطال الذين نسمع عنهم في القصص، ونقرأهم في الكتب، ونراهم في الأفلام.» تُفلت ضحكة من تاج السر: «فتى صغير متهور! هل تظن الرحلةَ لدارفور سفاري سياحي تسكنه الزرافات والغزلان والفيَلة؟ ثم هل جرّبت الملاريا من قبل حتى تتمنى الإصابة بها؟! سَلِ اللهَ العافيةَ يا ولدي، سل الله العافية!» يمضي تاج السر نحو المطبخ، يحضّر الشاي على الطريقة التي يحبها؛ شديد السواد، مفرط الحلاوة.

يتبعه مشعل يراقبه. «يُفترض أن الحرب هنالك وضعت أوزارها. حرب استمرت سبع سنوات عجاف أنهتها اتفاقية

سلام في ٢٠١٠. لا يزال هناك بعض القلاقل هنا وهناك، لكن ليس هذا المهم، المهم هو الأسر التي نزحت وتشرّدت، والبيوت التي هُدّمت. ندوب الحرب عميقة وبشعة.» يزفر تاج السر. «لم حدثت الحرب؟» يسأل مشعل. «ويلك! تريد الذهاب إلى مكان لا تعلم عنه شيئا! وتأملُ البطولة والفروسية بعد ذلك!» يحار مشعل جوابا، يناوله تاج السر كوبا من الشاي، فيمنحه بعض الوقت للتفكير في رد. «لم تكن رغبتي في الحقيقة، كنت متخوفا حتى البارحة حين رأيت ما يطمئنني إلى المضي. لقد أستودعني جارنا الكفيف مبلغا من المال وطلب مني أن أبنيَ به مدرسة لتحفيظ القرآن في دارفور. لم يخبرني لماذا وكيف. قال إنّها رؤيا!»

يدعوه تاج السر إلى المخزن-المُعتزَل، يتربّعان أرضا، يُناول مشعلا الصندوق الذي يحوي على تذكاراته من الكويت. يشرع مشعل يتفحّصها، في حين يرتشف تاج السر الشاي وهو يحكي قصة دارفور: «إخوة يجمعهم الدين، والعرق، والمواطنة. لا يفرّقهم سوى الأصل والنشاط الاقتصادي، بعضهم من أصل عربي ويعتمدون على تربية الماشية، والبعض الآخر من أصل غير عربي ويعتمدون على الزراعة. من الصعب في الحقيقة أن تفرّق بينهم من حيث العِرق.» يزفر تاج السر، ويسترسل: «الفتنة

شجرة مُنتنة لا تُنبت إلا ثمار الردى!» يستغرب مشعل، يقول في نفسه: «مثل قابيل وهابيل؟ صراع الرعي والزراعة!»

ينظر تاج السر إلى مشعل المنهمك في النبش في مكنونات الصندوق: «يبدو أن جارك الكفيف هذا يعلم الكثير عن دارفور، ليس عن السياسة أتكلم، بل عن أهلها. تشتهر دارفور بالخلوات أو الخلاوي كما نسميها باللهجة المحلية، وهي دور لتحفيظ القرآن الكريم. حتى بعد الحرب، أنشأ الدارفوريون خلوات قرآنية في معسكرات النازحين.»

استذكار تاج السر لهذا المعلومات يجعله أقل ترددا من ذي قبل إزاء فكرة ذهاب مشعل هناك. «اسمع يا مشعل، هناك فتى يجب أن يذهب إلى دارفور، كي يتعلّم البطولة ويصرع التماسيح!» يفزّ تاج السر من مكانه، يتجه نحو غرفة ابنيه، ويدق الباب بقوة. «اخرج يا فاتح! اترك الهاتف اللعين الذي تسهر أمامه وتعال بسرعة!» يُقابل طلبه بالصمت. «لا تتظاهر بالنوم يا شقي، يمكنني أن أرى ضوء هاتفك في الظلمة!» يقولها وهو يحني ظهره المحدودب قدر ما يستطيع، ويطلّ بصعوبة بالغة أسفل الباب.

(٦)

مطار أديس أبابا.

«كان في الطائرة. متأكِّد. لقد أحصيته، وضربت رأسه بيدي هذه!» يؤكّد غانم وهو يُري الجميع راحته التي يناقض لونها للمائل إلى الأزهر سواد يده، كما لو كانت مخضبّة بالمقلوب. لم ينتبه أحد إلى غياب مشعل إلّا قبل قليل حين هبطوا في أديس أبابا، حين فكّر معاذ في شراء شرائح هاتفية ليستمتعوا بخدمة الإنترنت أثناء انتظارهم الذي سيطول ثلاث ساعات. ثم تبين له أن هذا غير ممكن لأنهم لا يملكون تأشيرة دخول. هكذا اكتشف معاذ أنّ مشعلا مفقود.

«لدينا شابّ مفقود!» يصيح مغاضبا عبد الهادي مشرف الرحلة في مسؤول أمن المطار الذي يستمع إليه وهو يُخلل أسنانه بعود خشبي. يكتب شكوى، يطقطق قليلا على الحاسوب، ثم يطلب منه ببرود الانصراف نحو طائرته لئلا تفوته. يستصرخه عبد الهادي، يرد الرجل: «المعلومات التي عندي تقول بأنّ

السيد ميشال إبرائيم نُودي في مطار الخرطوم ليصعد الطائرة، لكنّه تخلّف عن الصعود. وبناء على ذلك، اُتخذت الإجراءات الاحترازية، وأنزلت حقيبته من الطائرة. الشخص الذي تسألون عنه لم يختفِ في الأراضي الإثيوبية.»

يهمس المترجم المرافق في أذن عبد الهادي بأنْ يدسّ بضعة دولارات في جيب الرجل. يُحدُّ عبد الهادي النظر إلى المترجم: «رشوة؟!» يتنحنح: «إكرامية، هكذا تسير الأمور هنا، وفي كل مكان تقريبا في العالم.» يزفر عبد الهادي زفيرا حارا: «عندي أنا لا تسير الأمور هكذا!» يُهاتف سفارة الكويت في إثيوبيا. يطلب السفير من عبد الهادي أن يسافر مع الفريق إلى جيبوتي ويترك الأمر له. يعده بأنْ يتابعَ الأمر بنفسه ويتواصلَ مع سفير الكويت في السودان للتنسيق.

أي شِقوة تنتظرك يا معاذ؟ ماذا ستقول لأم الفتى التي استحلفتك باللـه ثلاثا أن تأتيها به سالما؟ تلك التي أمطرت أمك بوابل من المكالمات لتتأكد من أنّ وحيدها مع رفقة مأمونة. يأمل أن يجدوا مشعلا قبل أنْ تعرف بالأمر. يضع معاذ احتمالات خيالية علّها تخفف قلقه وشعوره بالذنب. يتمنّى أنْ يكون مشعل قد تأخّر في دورة المياه، أو غفا على مقعد انتظار ناءٍ.

(٧)

مطار أديس أبابا.

ثلاث ساعات من الانتظار. تقرأ روعة على هاتفها نسخة إلكترونية من كتاب «فقه اللغة وسر العربية» للثعالبي، فصل «في ترتيب سواد الإنسان»:

«إذا علاه أدنى سواد فهو أسمر، فإن زاد سواده مع صفرة تعلوه فهو أصحم، فإن زاد سواده على السمرة فهو آدم، فإن زاد على ذلك فهو أسحم، فإن اشتد سواده فهو أدلم.»

تطلّ سارة من نوافذ المطار وتقول لروعة: «هذه هي الحبشة؟ الأرض التي وصلها الإسلام واستقر فيها قبل أن يصل إلى المدينة. ماذا نعرف عنها اليوم سوى الخادمات الإثيوبيات وقصصهن؟» تهمهم روعة: «إثيوبيا أو الحبشة، موطن النجاشي رضي الله عنه. إثيوبيا أو مملكة أكسوم، وطن أبرهة. أرض ملتبسة!» تنطوي روعة حول نفسها في مقعد قريب، تخرج دفترها وتتشرنق. تنزعج سارة من تلك النوبات التي تجتاح

روعة، لكنها تحترمها. كثيرا ما يشنّع شقيق روعة عليها قائلا «بدأت حضرة الأديبة تكتب رسائل إلى الموتى!» جيّد أنّه مشغول عنها يهذر مع الفتيان. تنسحب سارة وتخلّي لها الجو.

بكل ذخائر الكتابة من وجهة نظرها: «فضول الهررة، وخيال الأطفال، وعزلة النسّاك»، تأخذ روعة تكتب كما لو كانت لا تسمع شيئا حولها ولا ترى:

> كل شيء مستقر لك؛ الإمبراطور الروماني يدعمك من كل قلبه وبكل عتاده، الجوهرة المعمارية «غرقة القليس» أُنجزت. فماذا بقي؟ «بقي ذاك المكعّب الذي يجتذب العرب كالمغناطيس، يجب أن تسوّي به الأرض.» تقول لنفسك. لتجلبنّ أشد المعاول، وأحدّ المناجل. لا،لا! يجب أن يكون الطقس ناجزا وسريعا ويفطر القلب. يجب أن يشهق الناس فزعا، ويخروا منيبين. «أجل، المنجنيق! بضع ضربات، ويندرس المكعب الصغير. لا، لا، ليس من البطولة أن يهدم الحجرُ الحجرَ، ولا أن يهدم الحديدُ الحجرَ، لا بدّ لأن يكون المشهد أكثر رعبا.» تهمس لنفسك. تفرد أمامك الخارطة، أنت في صنعاء، بقرب جوهرتك

الثمينة، وهناك في أرضك-الأم الحبشة سراج المسيح يشع على العالم. تسارر نفسك بكلام لا تجرؤ على الجهر به: «هاه! ومن المسيح؟ أنا مالك الدنيا وسيّدها.» تعاود النظر في الخريطة، هنالك الهند. الهند ... أجل، الفيلة! تتخيل الأمر، فيلة ضخمة، مطهّمة، مسرّجة، تمشي بتؤدة وشموخ، لها تذعن الأفئدة. «لا بد أن هؤلاء العرب لم يروا فيلا في حياتهم. كم سيُصعقون حين يرونها، من سيجرؤ أن يستلَّ سيفه؟ العرب الذين يفخرون بفروسيتهم، سيحين صَغارهم حين يرون فيلتي الساحقة الماحقة.» تكركر ملءَ رئتك حتى أن من يراك سيخال له أنك تسعل بعنف.

تستجلبها، تعلفها، تدرّبها على بُغيتك. وتمضي بها مع سُوّاسها إلى حيث تُلحد. تدخل الفيلة، يُراع أهل مكّة من هيبتها، ينفضّون إلى الجبال. يشعر سوّاسها بالمُكنة التامة. «فلتتهيأ أيها العالم للمشهد العظيم، الآن نهدم هذا المكعب المتهالك، وعن

قليل تجري القبائل خلفنا، نقودها إلى القليس، حيث العظمة والمنعة والنور.» تصرخ بأعلى ما تستطيع. تصرُّ أن تكون أنت من يتصدر اللحظة. «هلمَّ يا فيلي الأمجد، أدخِلني التاريخ، أَقْدِم، أقدم!» ... ويحرن الفيل، «وَيْك أقدمْ!» تصرخ فيه. تشد الخطام، ويحرد الفيل. تنخزه بعصاك المدببة، ويشرد الفيل. يبرك في سكون كقطة وديعة تتشمس! تترجل، تخزّر عينيك له، تهمّ تعلّمه جزاء خِذلانه، يغزّك في قفاك شيء، تلتفت نصف التفاتة، فيصفعك شيء ثقيل على شفتك الشرماء، تبحلق عينيك وتشهق: «السماء، السماء تمطر ... تمطرا طيورا! والطيور، الطيور تمطر حجارة!» يغمرك سيل الحصى، يغمر السوّاس، حجارة حارقة تلسعك، تُصْليك وجعا. ترى بعينك المشهد الذي طالما تخيّلته، مع تغيير لم يخطر لك ببال؛ تبصر نفسك تتفتفت، يتساقط جلدك، فلحمك إربا إربا، بالضبط كما تمنيت لأحجار الكعبة أن تنفتّ. تنظر، تبدو لك الكعبة أكبر مما كنت تتصور، أكبر، أكبر! يرمي طائر بحجر في عينك الباقية، فتنقطع عن

الرؤية. لا يبقى سوى الألم تشعر به ولا تعرف من أين يأتيك في كل مرة. تستحيل -وأنت الرجل- إلى نُتف منتنة، إلى قشور واهية يطيّرها الهواء، ويطير نبأ العار في الآفاق.

(٨)

مطار أديس أبابا.

تتأمّل سارة خريطة في خلفية إعلان معلّق في المطار، تظهر إثيوبيا دولةً بلا سواحل. تفطن إلى مسألة لم تفكر فيها من قبل، إذا كانت الهجرة إلى الحبشة تمت عبر البحر، فكيف تكون إثيوبيا هي الأرض التي حطوا رحالها فيها؟

تجوس سارة وحيدة، تتذكر الحوار اللذيذ الذي دار في مطار الخرطوم. تعزم أن تعيد التاريخ وتصادف من تفتح معه حوارا مشابها!

تبتاع عصير مانجو، وقطعة كبيرة من الكعك كافية لمحاورة مطوّلة، وقنينة ماء، وكثيرا من الثلج. تدور بين المقاعد المنتشرة في المطار محتضنة كيسها، باحثة عن فسحة لها. تبدو حائرة ومثيرة للريبة وهي تحدق في الجالسين أكثر من تحديقها بحثا عن الكراسي الفارغة. لا تهتدي إلى مجموعة تبدو مهيّئة لحوار دسم.

معظم المقاعد المتصلة لا فراغ فيها، والقلة الباقية يبدو جلساؤها مشغولين بحوارات مفعمة أو بشؤون عاطفية لا يصح التطفل عليها. تلوم نفسها على تلك النزعة الخارقية التي هبطت عليها، شعورها بأنّها غدت قادرة على رسم الأحداث، وصنع التاريخ، وخلق الموقف. تشعر بأنها كأصحاب الجنة الذين عزموا منع الفقراء نصيبهم، أو كصاحب الجنتين الذي أيقن غرورا بأن جنتيه ما كانتا لتبيدا. تستغفر، تجلس وحيدة على مقاعد قصيّة وتشرع في التهام قطعة الكعك آملة أن تسلوَ قليلا بالسكّر. تمصّ العصير ضَجِرة وغاضبة من نفسها.

تشبك هاتفها بشبكة الإنترنت اللاسلكية في المقهى، وتبحث عن إجابة لسؤالها. تُدهش حينما تعلم أن آراء ترى أن هجرة المسلمين بدأت من ميناء يدعى «شعيبة» يقع قرب جدة، وانتهت بوضع رحالهم في ما يعرف اليوم بإريتريا التي كانت أصلا تقع ضمن مملكة الحبشة، أو في إحدى الموانئ السودانية! في حين ترى آراء أخرى، أنهم توغّلوا حتى وصلوا إلى مدينة «نيگاش» الواقعة في إقليم «تيگراي» الإثيوبي. تشعر سارة بالتشظي. بدلا من أن تجد إجابة لسؤالها، تجدها تخرج محمّلة بأسئلة جديدة. تتوق لزمن ماضٍ، زمن كانت موسوعة واحدة ترقد على رف البيت تجيب

عن أي سؤال تقريبا، وكانت وسائل الإعلام توزّع اليقين المريح على البشر. زمن كانت المعلومات قليلة، وتسهل الإحاطة بها، زمن كانت الأسئلة بسيطة، وقابلة للشفاء.

تلمح طيفا إلى جانبها؛ مسافرة تجر حقيبتها الصغيرة ذات العجلات تبحث لنفسها عن موئل هادئ في المقهى المزدحم. «هل تمانعين لو جلست هنا؟» تهز سارة رأسها دون مبالاة، تنزلق في مقعدها المصنوع من الفولاذ البارد، وتعود تقرأ في هاتفها. تنكفئ المرأة بدورها تطالع هاتفها وهي تقرش من البطاطس المقلية وتعبّ القهوة.

رائحة الدخان الخانقة تتسرب إلى المقهى، حيث يقف معظم المدخنين حول الغُريفة المخصصة للمدخنين لا داخلها لضيق مساحتها. تشعر سارة بأنّها مفرّغة من الداخل، وبأن سيلا من الغرور والعنجهيّة سلبها روحها. تتساءل كيف يمكن للإنسان أن يفقد نفسه حينما يشعر بالقدرة والمُكنة. تشتم في سرها دورات التنمية الذاتية التي حضرتها، تلك الدورات التي جعلتها تعتقد أنها يمكنها أن تفعل أي شيء إذا خططت وعزمت وقالت «أستطيع». تطفر دمعة من عينيها، تشعر بعدها بتحسن.

«تبا! الشبكة بطيئة!» تقول المرأة بصوت تسمعه سارة، لكن لا تبالي بالرد. امرأة سَحْمَاء فارعة الطول، ترتدي قميصا أبيض، وتنورة سوداء قصيرة، وسُترة سوداء رسمية، تسحب حقيبة سفر من نوعية فاخرة، وحقيبة يد كبيرة معمورة بالأوراق. تبدو موظفة في سوق للأوراق المالية أو في شركة مرموقة. تستبد الملل بالمرأة، فتسألُ سارة: «هل ستتأخر طائرتك؟» تنتبه سارة أنّها المخاطَبة، تنفض البرود عنها قليلا، تطالع ساعتها: «لا يزال أمامي ساعتين تقريبا من الانتظار.» تزفر المرأة: «أكره الانتظار، الوقت من ذهب! هذا مبدؤنا في عالم الأعمال ... هل لي أن أسال من أي دولة أنت؟» ترد سارة وهي لا تزال منزلقة في مقعدها: «من الكويت. دولة صغيرة، قد لا تكونين سمعت بها.» تدوّر المرأة شفتيها: «أوه! بالطبع أعرفها. تذهب بعض النساء من بلدي للعمل هناك.» تحار سارة ماذا تقول، يبدو أن حدود معرفة بعضهما بعضا تنحصر في الخادمات الإثيوبيات. تتذكر «سهام حمود»، الطالبة في جامعة الكويت التي قضت مؤخرا على يد الخادمة الإثيوبية. يخطر لسارة أن تخرج من إطار الكياسة، تعتدل في جلستها وتسأل صراحة: «آمل أن لا تعدّي كلامي وقحا، ولكن تجربتنا سيئة مع الخادمات الإثيوبيات! جرائم قتل، وشعوذة، وطقوس غريبة. تبدين لي امرأة متعلمة وعاملة، لكن

الفضول يعتريني، هل السحر ممارسة مقبولة اجتماعيا لديكم؟» يبدو بعض الضيق على وجه المرأة، تخفيه بابتسامة قائلة: «اسمي صوفيا، أثر الاستعمار الإيطالي على ما يبدو! كان أبي معجبا بصوفيا لورين.» تكركران، وتتداعى الحواجز. «اسمي سارة، طالبة في جامعة الكويت، أدرس الإعلام. يبدو أننا نتشارك الحرف الأول في اسمينا!» ترد صوفيا «أنا سيدة أعمال، أعمل في شركتي الخاصة في مجال التسويق الإعلاني. لا أدري إن كنت تعلمين يا سارة، لكن مجتمعنا متعدد العرقيات والانتماءات والانقسامات بشكل لا يدركه من لا ينتمي إلى قارتنا المثقلة بالتنوع القاصم!» تهم سارة بإخبارها عن التنوع في الكويت، لكن صوفيا تسترسل باندفاع: «هناك أكثر من سبعين قومية تتحدث بأكثر من سبعين لغة؛ هناك الأمهرة والتجراي ويدين غالبهم بالمسيحية، والأورومو والعفر والصوماليا ويدين غالبهم بالإسلام، وهناك الفلاشا الذين يدينون باليهودية، والديلامو، والجوارحي، وبني شنگول، وغيرهم كثير! إثيوبيا هي بابل هذا الزمان! ورغم أن المسيحية والإسلام هما الديانتان الغالبتان، هناك ديانة تسطو على الكثيرين؛ ديانة الجهل والفقر! هناك في القرى البعيدة عن المدن، حيث الجهل سيد الموقف، لن يكون عجيبا أن يخرج أحد البسطاء من الكنيسة أو المسجد ويتجه إلى

بيت المشعوذ!»

تتجرأ صوفيا وتسأل سارة: «هل بلادكم عنصرية كما أسمع؟ أعني هل يمكن للسود أن يصلوا إلى مناصب مهمة؟» يبدو السؤال غريبا حد الإضحاك للوهلة الأولى، لكنه تبدو وجاهته بعد التفكير. الإنسان ابن بيئته، ينظر إلى الآخر من منظار ثقافته، يتيح له هذا المنظار الرؤية عن بعد، لكنّه يشكل قيدا على عينيه. «هل تعلمين يا صوفيا أنه لا توجد لدينا إحصائيات حول السود الذين يتقلّدون مناصب مهمة، لأنّه وببساطة لا يبدو غريبا لدينا أن يتولى شخص أسود منصبا. إذا لم تخني الذاكرة، فلا يوجد حاليا أي عضو في البرلمان أو ضمن الوزراء من يمكنه تصنيفه أنه أسود، لكن رغم ذلك لا يشعر السود في الكويت بالإهانة جرّاء ذلك، لأن الأمر ليس مقصودا. أعلم أن هذا غريب، لكننا نجد مثلا أن احتفاء الأمريكيين بأول رئيس أسود أمرا رجعيا! وكأنه اعتراف ضمني بأنّ السود عنصر غريب عن المجتمع، عنصر مهمّش حصل على جرعة مساواة كبيرة مؤخرا. الكويت مجتمع متعدد الأعراق، وتجدين الكثيرين من المواطنين السود مندمجين بشكل طبيعي مع البقية. قد توجد بعض القيود هنا وهناك، وقد تسود العنصرية لدى البعض، لكن هذه ليست

ممارسة مجتمعية عامة.» تشك صوفيا في كلام سارة شكّا تعرضه بَواحا بمحاولة تقطيب حاجبيها، لكن البوتوكس المحقون في جبهتها وجوانب عينيها يجعلها تطبق نصف عينيها وتزمّ منخريها بشكل ظريف. تسترسل سارة: «التمييز العِرقي ليس مشكلة تواجه مجتمعنا. لكن لدى بعض الكويتيين نوع آخر من العنصرية؛ التمييز بناء على الجنسية، أي فرز سكّان الكويت إلى كويتيين ووافدين. وهذا برأيي أمر متوقّع من مجتمع يحاول الدفاع عن ذاته وخصوصيته. هل تعلمين أن نسبة غير الكويتيين تفوق الـ٦٥٪؟ كثير من المواطنين يشعرون بخطر يظهر بشكل تصرفات دفاعية وأحيانا عنصرية عنجهية.» تضيف سارة بعد صمت وجيز: «لا يوجد مجتمع خالٍ من العنصرية، إلا مجتمع يشكّل أفراده نسخا من بعضهم بعضا، مجتمع غير إنساني حتما.» تَطمئنّ ملامح صوفيا.

تتعجل صوفيا بعد سماعها لنداء طائرتها: «عليّ الذهاب، لكن دعيني أسألك سؤالا أخيرا، هل من المعتاد أن نرى سيدات أعمال في بلادك؟ هل يسمح دينكم بهذا؟ يشكّل المسلمون أكثر من ثلث سكّان بلادي، لكن لم يُتح لي حوار صريح مثل هذا من قبل!» تجيبها سارة: «السيدة خديجة رضي الله عنها

زوجة النبي عليه الصلاة والسلام كانت تاجرة لها قوافل تجوب الأصقاع. وفي الكويت لدينا كثير من سيدات الأعمال ابتداء من تاجرات العقار والأسهم، وانتهاء بتاجرات صغيرات يبعن الكعك المكوّب أو الثياب عبر الإنستگرام. بهذا المعنى، اسأليني عن كويتية ليست سيدة أعمال!» تقهقه سارة بشيء من السخرية، تقهقه وحدها، فصوفيا لا تعلم عدد الكويتيات اللاتي يحترفن بيع كل شيء؛ الأطعمة، والحلوَيات، والملابس، والزهور المنسّقة، والعطور المصنوعة منزليا، وأدوات التجميل، وتجهيزات والأعراس، البضائع المستوردة شخصيا، بل حتى السلع المقلّدة. ظهور برنامج «إنستگرام» أسفر عن قفزة تجارية عبر أعمال تدار من المنزل دون ترخيص أو رقابة، تعمل فيها نسوة يبعن سلعا تصل للمشترين حتى المنزل، سلع تتوفر أحيانا في السوق المحلية، وبعضهنّ يبعنها بأضعاف الأسعار.

تصافح صوفيا سارة مودعة إياها وهي تسلمها بطاقتها. ترد سارة بكتابه هاتفها وبريدها على جذاذة اقتطعتها من الورق المبطن لصينية المقهى. أخذت سارة تفكر جديّا أن تطبع بطاقات شخصية لها، فهواية التعرف على الغرباء في المقاهي والثرثرة معهم راقتها.

(٩)

مطار أديس أبابا.

رغم قلبك الفاره، تكتم بهجتك. شعور غريب يخامرك، في بلعومك، وفي بطنك، السعادة ترجُّ أحشاءك، لكن لا بد من افتعال الوقار. تودّ أن تخرّ للرب تشكره، تتشوّف رحيل الجميع لتفعل.

العرب هذه المرة أكرم ما يكونون. تتأمل الكنوز التي بعثوا بها، تَعجب، وتُعجب. يزول عجبك، ويتحوّل إعجابك إلى حنق حينما يخبرك المبعوثان بالأمر؛ يطلبان منك ثمنها بمعنى أدق! يتحدّثان عن سفهاء فرّوا من مكّة، صبؤوا عن دين آبائهم، واختلقوا دينا جديدا. يطلبان منك أن تسلمهم لهما، هكذا يُدرأ خطرهم عن أرضك، ويُدْرأ العار عن العرب.

تأبى، تتذكر الميثاق الذي واثقته الرب؛ أن تسمع الضعيف كما تسمع القويّ. تستدعيهم. تسمع منهم كلاما عجبا. تتدفق فواتح سورة مريم. نور طازج يدقّ قلبك. تعلم المشكاةَ واحدةً. تتشرب لحيتك بدمعك. ما عاد وقارك يهم، ما عادت هيبتك أولويتك. ذاك النور الشفيف يحجبك عن كل شيء. تخرج من رحم النور مشحونا بالطمأنينة الصافية.

يتآمر القوم. يزمعون التدليس عليك. يزعمون أن ضيوفك يحطّون من قدر المسيح. تستدعيهم. تستبين. يخسر المبطلون. تسلّ عودا في وجه الحاضرين، تسلّه سيفا حادا: «ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود.» تردّ على الوشاة رشاواهم. وتنشر جناح حمايتك على المؤمنين.

تخالفك الرعية؛ معظمُها. لا يجرمُك شنآن كفرهم أن تقهرهم على الإيمان. تنزوي أنتَ ونفر من قومك الخُلّص نحو الرسالة التي بشّر المسيح بقدومها. يهفو قلبك، تتمنّى لو تهجر الأرض وتمضي إلى حيث الرجل الصدوق. تخشى، تخشى إن أنت رحلت أن يأتي مَن

يسوم رعيتك البَغي. تظل عليهم عاكفا بالتحنان، آملا أن يأنسوا النور. ويظل قلبك ملهوفا صوب مهبط الحق. وحين يشتد التوق بروحك، فتفارق حبال الدنيا الدنيّة، يقف الصدوق ومن معه يصلّون عليك صلاة الغائب. تشعر أخيرا شعور التمام والفوز.

تغلق روعة دفترها. تشعر بأنّها مشحونة بطاقةٍ لمجابهة الحياة مجدّدا.

(١٠)

جيبوتي.

زيارة السودان كانت لوضع حجر أساس، كانت مشروع أمل مستقبلي، كانت غرسا سوف يزهر. أمّا زيارة جيبوتي، فغرس سيرون زهره وثمره بأعينهم. سيوزعون بأيديهم المساعدات على المحتاجين. يرتدي المتطوّعون سترات ترابية اللون تحمل علم الكويت مطرزا، وشعار «الرحمة العالمية» التي تستقبلهم اليوم.

تمسك سارة بكاميراها الاحترافية التي تسمّيها روعة بالمدفع، ليس لأنّها من نوعية «كانون» التي تعني بالإنكليزية المدفع، ولكن لعدستها النافرة التي تشبه المدفع فعلا. تهمس سارة لروعة بأنّ عليهما الحرص على توثيق كل لحظة تصويرًا، ونشر الصور على «إنستگرام». تمتعض روعة، تُخبرها عن خشيتها أن يُدخل هذا الرياء على القلوب. تردّ سارة بأنّ العلانية مطلوبة في أعمال الخير كما الإسرار. لا تزال روعة غير مرتاحة، يخونها لسانها كعادته، الأفكار الوفيرة في قلبها تعجز عن الوصول إلى

لسانها، تغترف فكرة عشوائية وتلقي بها في وجه صديقتها: «هل من الإنسانية أن نصوّر المحتاجين كما لو كنا نصور كائنات في حديقة الحيوان؟!» تشهق سارة: «أنتِ وأفكارك المجنونة!» يزداد الشق بين الصديقتين، يعتمل بركان غيظ مكتوم في قلب سارة من روعة التي جرحتها بآرائها الغريبة. هكذا هما دائما، سارة مفرطة في انطلاقها واجتماعيتها، وروعة مفرطة في انطوائيتها وميلها للاستبطان. كثيرا ما تتساءلان كيف أصبحتا صديقتين وهما بهذا التنافر؟ وما الذي أبقاهما صديقتين لسنوات تسع رغم الاختلافات شبه اليومية؟

تنزوي روعة عن الملأ، تجوس كقطة تبحث لها عن بقعة ظليلة. تُخرج مفكّرتها من حقيبة ظهرها، تتربّع على الأرض المُغبرة مستندة إلى صُخيرات قاسية، وتجعل تكتب:

> ها نحن هؤلاء نفلت بهجةَ اللحظة كيما نصنّم صورتها. تلك اللحظة المصطفاة، كُنّا في الماضي القريب نصطفيها لوقعها في وجداننا. أما اليوم، فهي تكتسب شرعيتها وتُجتبى للوقع الذي تثيره في نفوس الآخرين. الصورة اليوم مخلب للرياء، وسنّارة للنجومية، وعصا للنرجسية. أفلتنا أحقيتنا في

لَقطة غير مشاعة، لقطة خصوصية، لقطة نضعها في برواز قرب السرير، لقطة قد لا نبدو فيها في أحسن حال، بيد أنّها تعني لنا شيئا خاصا، لنا نحن، وليس للعيون التي نعبدها ونستجدي منها نقرات الإعجاب.

تزفر روعة، تغفر للكتابة جُرمها بأن سرقت منها لسانها. تشكرها أنْ منحتها في المقابل أجنحة من حروف.

*****

تصل رسالة إلى معاذ من الخط الكويتي لمشعل:

«أنا في السودان، عندي أمر عاجل يجب أن أقضيه. لا تقلقوا عليّ. لا أظنني سألحق بكم في جيبوتي. نلتقي في الكويت بإذن الله.»

تُبلغ السفارة بالأمر، لكن لا أحدَ يقتنع بفحوى الرسالة خاصّة وأنّ مشعل لا يردّ على المكالمات. قد يكون هذا تطمينا زائفا من خاطفين يريدون نقله إلى مكان آمن ثم المطالبة بفدية. تُبلغ السلطات السودانية، وتشكّل فرق للبحث عن مشعل.

يتسرب الخبر إلى الصحافة. تكتب إحدى الصحف على

صفحتها الأولى:

«فقدان كويتي في رحلة خيرية واشتباه في اختطافه»

في العدد نفسه يكتب ثلاثة من كتاب الأعمدة عن الموضوع، منددين بـ«المخاطرة بالشباب في رحلات لا تحمد عواقبها، في مؤسسات يسيطر الإسلاميون عليها ويسيّرونها لأغراض سياسية تتعارض والمصلحة الوطنية». في حين يدعو كاتب شهير إلى «حظر مشاركة المواطنين مثل هذه الرحلات نظرا لعواقبها غير المأمونة».

تلحقها في اليوم التالي جريدة أخرى تكتب افتتاحية بعنوان «مَن اختطف العمل الخيري؟» منددة بـ«توسّع العمل الخيري بشكل يفقده طبيعته»، متسائلة عن جدوى هذا على الكويت، وإذا ما كان وراءه «أجندة ما تهدف إلى دعم جماعات سياسية إسلامية.»

يدشّن بعض المغردين وسما على تويتر بعنوان #كويتي_مفقود_ بالسودان حظي بتفاعل كبير وصل إلى ١٤٦٢ تغريدة في اليوم الأول تشمل أخبارا متناقلة عنه، وأدعية، وبعض الإشاعات، وآخر صورة نشرها لنفسه على الفيسبُك وهو يرتدي سترة الفريق التطوعي. يدشن بعض الناشطين أيضا وسما بعنوان

#أوقفوا_اختطاف_العمل_الخيري وصلت عدد تغريداته إلى ١٧٦ تغريدة.

يهدّد أحد النوّاب في مجلس الأمّة صباحَ اليوم التالي باستجواب وزير الشؤون «ما لم يوضّح ما الذي حدث بالضبط، ويتّخذ الخطوات الملائمة لإرجاع ابننا سالما ومعافى إلى أرض الوطن». الإعجاب الذي يناله من الكثيرين يدفع بستة نوّاب آخرين لإطلاق التهديد نفسه موسّعين دائرة المهدَّدين بالاستجواب لتشمل وزيري الخارجية والأوقاف.

(١١)

قرية مؤمنة، جيبوتي.

تنطلق الحافلة بالمتطوّعين إلى قرية «مؤمنة»، ينطلقون ينقصهم مشعل المفقود، وسينقصهم بعد رحلة اليوم معاذ الذي ضحّى بأوّل أيّام مخيّمه الطبيّ ليوزّع المساعدات. تفتح سارة حقيبتها، تتفقّد الحلوى التي جهّزتها لتوزّعها على الأطفال.

يصلون مكانَ توزيع المعونات؛ أرض صخرية قاحلة، محاطة بهضاب جبلية، شمس صيفية محرقة، صدوع من فرط الجفاف تمتد على الأرض، ولا مظهر للحياة سوى بضع شجيرات قصيرة بلون الرمل فقدت معظم أوراقها وصارت تبدو مثل ضُميمات من الشوك.

يلمحون طابورا طويلا، الغالبية الساحقة ممن فيه نساء وأطفال، يقف جلّهم حفاة، أو يفترشون الأرض كِفاحا بلا بساط. أقدامهم مثل الأرض، شاحبة، وسميكة، ومتصدّعة بالقحولة بلغ أهلَ القرية النبأُ، فتعاجلوا ينتظرون وصول المعونات. حدث أن وصلت حافلة المتطوعين قبل وصول شاحنة نقل المؤن التي

يؤخّرها عنهم انفجار أحد إطاراتها.

*****

يرى وجوههم الجافّة، ويتذكر معاذ نفسه عام ١٩٩٠، غلامَ الرابعة عشرة في أشهر سبعة عجاف. يتذكّر حينها أنه تذوّق الجوع، الجوع الحقيقي لأوّل مرّة. كان الغزو العراقي للكويت بوابته الأولى ليتعرّف على نوازعه البدائية التي كان يفترض أنّه يعرفها. بعد مرور ثلاثة أشهر من الغزو، وحينما بدأ الطعام يشحّ بشكل مقلق، تعلّم الغلام أن الجوع كل الجوع هو أن يجتمع وجع البطن وقرقرته، مع خوف ألّا يأتي الطعام.

قبل الغزو بأربعة أشهر كان قد صام رمضان كاملا لأول مرة. كان يتبجّح بأنه صار يعرف شعور الفقير والمحتاج. مسألة فيها نظر! الجائع الذي تنتظره مائدة عامرة على مقربة ساعات ليس جائعا إلا مجازا. الجوع الحق هو ما جرّبه تلك الأيام. حينها فقط، صارت قصة حصار المسلمين في شِعب أبي طالب ذات معنى محسوس لمعاذ اليافع. كانت قبلَئِذٍ، مجرد حكاية تاريخية يغضب لأجلها غضبا سطيحا نبيلا.

في يناير ١٩٩١ كتب أول قصائده، كانت بعنوان «مدرسة

الجوع». ثم أخذ يكتب أشعار حماسية، لم تخل من كسور جليّة في الوزن. كانت تلك الفترة هي الوحيدة التي كان أبوه يستحسن فيها ما يكتب. بعدها، كان يوجهه بحزم أن يصرف جهده تلقاء «شيء نافع».

*****

كانت سارة تنوي أن توزّع الحلوى على الأطفال بعد توزيع المؤن، لكنّ الخطة تغيرت الآن. تفتح حقيبتها بحذر، وتخرج لوح حلوى واحد فقط توقيا من هجوم من الأطفال قد يُوقع الحلويات من يديها. تستغرب عدم إقبال أيّ من الأطفال على ما في يدها رغم رؤيتهم له بوضوح. تفترض أنّ أطفال هذه القرية خجولون، أو أنّ فيها ما يخيفهم. تلوم نظارتها الطبيّة على ذلك. تقترب من طفل متشبث بذيل خمار أمه الطويل المزركش، تُناوله لوح الحلوى، يتسلّمه الصغير دون اكتراث. تقطع روعة عليها سعيها حينما تتفاجأ بها تلتقط صورة لها وهي تقدّم الحلوى. «أراك خففت من تصلّبك.» تقول لها سارة: «سباني جمال اللحظة! تعالى وشاهدي ما صوّرت.» تردّ روعة.

يناول الصغير ما في يديه لأمّه، تقلبه في يديها بغير اهتمام، تشق

الغلاف للاستكشاف وتمضية الوقت إلى أن تصل المعونات، تتدبق يدها بمادة طينيّة تخرج من الغلاف، ترفعها لتشتم رائحة توحي بطعم مر. تلعق يدها لأن ثيابها المهترئة لن تتحمل التلطّخ، تُصْعَق لتحوّل المرارة المتوقعة إلى حلاوة طاغية. تلعق باقي الشوكولاتة المائعة العالقة بيدها، ثم تستحثّها نفسها لقضم اللوح، تفعل. طعم غريب تجرّبه لأول مرة. تتصارع مشاعر أمومتها مع جوعها وأنانيّتها. أتستأثر به لنفسها أم تعطيه لصغيرها؟ تقترب منهما امرأة أخرى يستظل بها طفلان.

يمضي بعض المتطوعين فترة الانتظار داخل الحافلة هربا من أشعة الشمس المتعامدة على رؤوسهم، في حين يلتقط البعض الآخر الصور. يتفاجأ الجميع بسارة تصرخ طالبة النجدة، في حين تركض روعة باتجاه الحافلة لإبلاغ المسؤولين وقد فقدت قدرتها على إنتاج أي كلمة مفهومة. تتجاذب امرأتان وثلاثةُ صغار سارةَ، يرطنون بكلام لا تفقهه. لا تبدو عليهم العدائية، لكن إمساك كل من المرأتين بساعديها، وتحلق الصغار الثلاثة يصيحون «فَدْلَن، فَدْلَن»[٣] يجعلها تفزع لما يحدث. يتجمع الزملاء مبعدين المرأتين، في حين يتدخل المترجم ليعرف الداعي

٣) فضلا باللغة الصومالية.

لما حدث.

تصل الشاحنة أخيرا، محمّلة بأكياس من القمح والشعير والأرز والسكر والذرة، وبراميل من الزيت، وأرغفة خبز طازجة. يعتدل جميع من في الطابور استعدادا لتلقي حصّتهم من المعونات. تتراكض المرأتان وصغارهما نحو الطابور. في حين يشرح المترجم لسارة أن أهل هذه القرية لم يذوقوا الشوكولاتة من قبل. وحين ذاقتها المرأة الأولى وطفلها، واستدلت المرأة الثانية على طعمها أيضا من خلال لعق بقاياها من القرطاس الذي برّتها به جارتها، توجهتا نحوها تستجديان المزيد. كان استجداءً عنيفا بعض الشيء، خاصة في ظل غياب اللغة المشتركة.

من الشاحنة الحبلى يُنزل الفتيان بأنفسهم الأكياس الثقيلة؛ يصعد بعضهم إلى الشاحنة لحملها، في حين يتحلّق الباقون حولها لتلقفها منهم. كل كيس يحوي ١٠-١٥ كيلوغراما من الحبوب. يتلقّف واحدهم الأكياس من الآخر بانسجام. «هولو يا مليه، هولو يا مليه، هيه»، يقفز «الغيص»[٤] يشق الأمواج، يجوس في العمق، يلتقط كنوز البحر، يشد الحبلَ لينبه رفيقه «السيب»[٥]

٤) الغوّاص عن اللؤلؤ باللهجة الكويتية.
٥) الموكل بسحب الحبل ورفع الغيص إلى السفينة.

الذي يتلقّى الإشارة سريعا، يسحب الحبل بهمّة، يتلقّف صاحبه في اللحظة المناسبة. يجلسان تحت الشمس، يجفّ أحدهما من مياه البحر المالحة، في حين تمعن الشمس في تحميص الآخر.

«سَلَامٌ لِأَشْرِعَةٍ فِي الْخَلِيجِ * تَجُوبُ الْبِحَارَ وَتَهْوَى الْخَطَرْ

سَلَامٌ عَلَى رَاحِلٍ لِلْمَغَاصِ * سَلَامٌ عَلَى عَائِدٍ مِنْ سَفَرْ»[٦]

تسفعهم الشمس الحارّة، تتحول جلودهم -على اختلاف ألوانها- إلى سمرة موحّدة داكنة. هؤلاء الفتية هم أنفسهم من يُرون يتجوّلون في المجمعات الرخامية المكيّفة يشترون أفخر المتاع. هذا هو جيل «البيكاتشو» كما يسميه أبو مشاري!

يقسّمون بأنظارهم الرقعة الصحراوية الفارغة إلى مربعات وهمية بينها مساحات فاصلة، هكذا يمكنهم تقسيم المعونات بانتظام ودون عراكات. يضعون كيس قمح في كل مربع، ثم يشرعون في توزيع أكياس الأرز، فالذرة، فالسكر. توزّع الفتيات برميل زيت صغير في كل مربع.

تنظّم الفتيات الطابور، يرشدن النساء بنظام، كلٌّ إلى رقعة تناسب عدد أطفالها. تتذكر سارة دروس اللغة الفرنسية التي

٦) البيتان للشاعر الكويتي محمد الفايز.

حصلت عليها، فتقول للنساء تطمئنهنّ على وفرة الطعام: «Beaucoup, beaucoup.» وتشير بأصابعها إلى الكثرة. لكنهنّ لا يفهمن ما تقول. يلقنها المترجم أن تقول «كنتو فارو بادان»، «الطعام كثير» باللغة الصومالية المنتشرة في جيبوتي. رغم كونها عضوا في جامعة الدول العربية، ورغم كون العربية والفرنسية اللغتين الرسميتين للبلاد، إلا أنّ الغالبية العظمى من السكان يتحدثون الصومالية والعفارية.

تلمح سارة أطراف أصابع شديدة البياض متشبثة بغطاء إحدى النساء. تمعن النظر، تُراع، أتكون طفلة مختطفة؟ تتوجّه نحوها، تنزل إلى مستوى الفتاة المتلفّعة بكثير من الثياب وبقبعة رديئة مصنوعة من ورق نبات يشبه الجريد. تُطلّ في وجهها شديد البياض، تفزع من شقرتها الفصيحة، شقراء إلى الحد الذي لا يمكن رؤية رموشها أو حاجبيها. تهمّ تحادثها بالإنكليزية والفرنسية لولا انتباهها إلى ملامحها الإفريقية البيّنة. تسحب قبعتها التي تكشف عن شعر مفلفل تقترب شقرته من البياض. «أنتِ ألبينا!» تفطن سارة. تخرج كريم الحماية من حقيبتها، الكريم الذي نسيت أن تستعمله منذ وطئت أرض إفريقيا. تدهن به جلد الطفلة المَهقاء. ثم تحضّ الأم بلغة الإشارة أن

تستخدمه لابنتها حين تخرج في الشمس.

تزمع سارة نثر جرعة أكبر من البهجة. تستخرج الكيس الكبير من حقيبة ظهرها، تركض مثل طفلة، تلقي بلوح شوكولاتة في يد كل امرأة واقفة قرب مؤنها، وتفرّ راكضة إلى المربع الذي يليه. هكذا يمكنها أن توزع ما لديها قبل أن تكتشف البقية الباقية طعم الشوكولاتة وتتوافد عليها. تخيب حسابات سارة، فقد انتشر نبأ تلك الأشياء اللذيذة المغلفة بغلاف بلون الذهب. ما أن تُوزّع الألواح على ثلاث أو أربع نساء، حتى تجد سارة فوجا من الأطفال يتناهبون نحوها صارخين بأصواتهم الطفولية الحادّة: «فَدْلَن، فَدْلَن». تغيّر سارة خطتها، تقرر أن تلعب قليلا. تجري ضاحكة، ويجرون وراءها، تتبع بعض النساء الجَمع راكضات. يُدرك الأطفال سارة، يستوقفونها. تغير خطتها للمرة الثالثة، «اليوم عندنا نُون!» تلقي سارة بألواح الشوكولاتة في الهواء وهي تردد «ألف الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد!» تتبعها زغردة غير متقنة: «گولولووووش». يتخاطف الأطفال الألواح مبتهجين. تلمح سارة صديقتها روعة تصوّر من بعيد ما يحدث وهي تحبس قهقهتها.

(١٣)

الخرطوم.

تستمرُّ محاولات تعقّب مكان شريحتي مشعل الهاتفيتين الكويتية والسودانية. تنجح السلطات في تحديد مكان شريحته السودانية؛ كسلا. يغلب على ظنّهم احتمالان: إمّا أنّ الخاطفين اقتادوه هناك، وإمّا أنّهم سرقوه وتركوه في الخرطوم وعادوا إلى مستقرّهم في كسلا ومعهم هاتفه وفيه الشريحة. تزوّد السلطات في الخرطوم المسؤولين في كسلا بموقع الشريحة بالتحديد، وتطلب منهم إلقاء القبض على الموجودين في الموقع.

مزيد من التحريات تُظهر أنّ الرسالة التي وصلت معاذًا من مشعل والتي جاءت عبر خطه الكويتي مصدرها كسلا أيضا. يُقطع الشك باليقين.

انهمار

«أهلا أيّها الشِّعرُ العزيزُ النائي!»
(معاذ)

(١)

أدنبرا، اسكتلندا.
سبتمبر، ١٩٩٤.

أولى أيّامك في أدنبرا، أدنبرا بِراء لافتة كما ينطقها الاسكتلنديون. فتى الثامنة عشرة، من أوائل الثانوية العامة، تعاني قرّ الغربة لأول مرة.

يا للقَدَر! أدنبرا، مدينة «آرثر كونان دويل»، مخترع شخصية «شيرلوك هولمز». السير آرثر، الدكتور آرثر، طبيب العيون، الشاعر، الأديب، هنا في أدنبرا درس الطب. ما علمت بهذا إلا توا، وإلا كنتَ أضفتَه إلى قائمة الأطبّاء الأدباء الذين كنتَ تنافح بهم عن نفسك حينما كان يَسُوطك أبوك بعبارته المكرورة: «شِعر؟ خرابيط! ركّز في دراستك يا ولد!»

عكفت على كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء» لابن أبي أصيبعة، تنقّب فيه عن الأطبّاء الشعراء؛ ابن سينا، الكنديّ، أبو

الحكم الأندلسي، ابن البذوخ، حكيم الزمان الجلياني ... عددت الكثير منهم، أنهكك التعب. كم تدرّعت وتذرّعت: «دكتور جيفاغو»؛ يوري الذي جمع الطب بالشعر. «شخصية وهمية» يجيبك أبوك. الطبيب والشاعر إبراهيم ناجي الذي حفظت أبياته عن ظهر قلب، وتهوّرت ذات يوم وعلّقتها على باب غرفتك تتوسّل بها عطف أبيك وتتسوّله:

النَّاسُ تَسْأَلُ وَالْهَوَاجِسُ جَمَّةٌ * طِبٌّ وَشِعْرٌ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ؟

الشِّعْرُ مَرْحَمَةُ النُّفُوسِ وَسِرُّهُ * هِبَةُ السَّمَاءِ وَمِنْحَةُ الدَّيَّانِ

وَالطِّبُّ مَرْحَمَةُ الْجُسُومِ وَنَبْعُهُ * مِنْ ذَلِكَ الْفَيْضِ الْعَلِيِّ الشَّانِ

وجدت الورقة مكوّرة ومُلقاة على عتبتك!

أَيْ معاذ، تلوب في الشارع صَمُوتا، بشاربك الكث الكبير على وجهك الصغير. هل قال لك أحد إنّك تبدو مثل الدكتور «واتسن» رفيق «شيرلوك هولمز»؟ واتسن الطبيب، واتسن الجرّاح. يلفح هواء الخريف الاسكتلندي شعرك الكثيف، تتسع في الظلام حدقتا عينيك، يغلب عليهما السواد الذي سرعان ما يستحيل قرمزيا، تبدو كقط شيرازي مدلّل تسلّل في جولة ليلية.

وذقنك، ذقنك الذي تدقه غمازة لطيفة في منتصفه. ما هذا إلا وجه شاعر!

يسحّ الدمعُ؛ دمعُ الرجال الذي لا يجوز أن يُرى، ودمعُ الأطبّاء الذي لا يجوز أن يهمي أصلا. لا، ما دمعها هذا الذي يفيض، بل دمع الشاعر الذي غلبه الحنين وهو لم يرَ بعدُ إلا طرف ذيل ثوب الغربة. تلاحظ كيف يتعاطف أنفك مع عينيك، تنشِق لترد سيول أنفك تأبيا، ثم تطلقها وأنت تكركر. تهاجم أنفَك رائحةُ زيت المقالي النتن المنبعث من مطعم قريب، يتفاقم شوقك للوطن. تسحب محرمة من جيبك، وتسحب معها فاتورة مجعّدة لتكتب عليها كلاما، كلاما قال أبوك عنه إنّه «غير نافع».

تنغمس طِبًّا. ينضج قلبك المائع، يتصلّب شيئا فشيئا كبيضة تؤزّها الحرارة. قلبك الغضّ، قلبك الشاعري الخوّار، يتبدّل ليصبح قلبَ الفارس المغوار الجبّار الذي لا يخشى الدّم.
تعزم التنصلّ من ذاتك القديمة بالذهاب إلى أبعد نقطة عنها؛ تتخصص في الجراحة العامة. ولأنّك شاعر سابق، يحتاج الأمر جرعةً مضاعفة من الاستصخار والتجلمد. تُفْرط في نضجك الجديد حتى يغدو قلبك مجفّفا كحبّة قراصية!

تودّع عالم الشعر المجنون، حيث الارتجال والعبث أفعال حميدة، حيث المفارقة والاختلاف والفردية أساس وجوديّ، حيث تُتعلم المألوفات بغرض كسرها متى أمكن. تنتقل إلى عالَمٍ معاكس، عالم عاقل جدا، حيث النظامية المُمَنهجة والتقعيد، حيث الارتجال هو الطارئ والإبداع هو الاضطراري، حيث العبثية تجديف علمي، حيث القاعدةُ هي الانصياع للقاعدة.

تنسيك إضاءة غرف العمليات المبهرة فوضويتَك، وعبثك، وجنونك، والإضاءة الدافئة الدافقة التي أَلِفتها. تعتاد النصاعة، والدقة، والنظامية. كنت تجترح الكلمات، وغدوت تجرّح الأجساد. ما عدت ترمي القراطيس المكوّرة المحشوة بمحاولات هذرك الشاعري في سلة مهملاتك. مُذ ارتديت زي الـ«سوبرمان» الأزرق، تغيّرت القائمة: أورام، أكياس دهنية، مرارات ملتهبة، نتف من الغدة الدرقية، أجزاء من معدات مكمّمة، دهون مشفوطة، جلود مقصوصة، قطع مستأصلة من القولون. ما أبونَ القفزة يا رجل!

بعد كل هذه السنوات، صرت تخيط الجِراح ببرود جَدّة ضجرة، ببراعة تلك التي تتخذ مخدة مفتوقة ألهيةً لها. شتوات عديدة مرت في صدرك لتمنحك برود الجرّاحين، البرود الذي لا

يليق به أدرينالين الشعراء. حُرّم عليك التقمّص، وجُرّم فيك التعاطف. لقد فقدت وقود الكتابة، أخذ ينزّ منك يوما بعد يوم. فقدته مُذ ما عاد الألم يرهبك، ولا عاد الخوف يعتريك. خلعت قميص المشاعر، وبقي الشِّعر في صدرك أجردَ، ملفوحا ببرودة أعصابك الفولاذية الجديدة، فاندسّ بعيدا، واندرس. أعصاب الجرّاحين المتينة، وأعصاب الشعراء السريعة العطب، لا تجتمع، لا تجتمع.

الألم بالنسبة إليك الآن ليس ذاك الشعور الذي ينداح في نياط القلب، بل هو شيء واجب التصنيف: ألم طاعن، أو نابض، أو ضاغط، أو منتشر، أو حارق. ألم حاد أو مزمن. هو شيء يقاس على مقياس من ١ إلى ١٠. الألم صار شيئا، ما عاد تجربة. لفرط ما عرض نفسه عليك، فقد معناه. ما عدت تشهق وتغرورق دمعا حينما ترى مَن يتألم. فقد الألم هيبته، ففقد الشعر حضوره يا معاذ، يا مستر معاذ. التقليد هنا يقضي أن يُنادي الجراح بالسيّد لا الدكتور. يا «مستر مُوواث» -كما ينادونك هنا- تحتاج إلى ألم من نوع جديد لم تذقه من قبل، حتى يمكن لشرارة الشعر أن تنقدح في قلبك من جديد! قلبك المجفّف يحتاج إلى قبلة حياة من نوع خاص حتى يعود الشعر إلى مجاريه. أينها؟ أينها؟

(٢)

الفندق، جيبوتي.

قلب معاذ مشغول بمشعل. صلة القرابة البعيدة بينهما، والوعد الذي قطعه لأم مشعل بالاستيصاء به خيرا يجعلان ما حلّ به همّا كبيرا. الفتى المدلّل الذي فقد أباه طفلا، فرتع في حنان فائض من أمه، وثروة لا بأس بها. ليس يُتمه وحسب ما يجعل أمّه تغدق عليه حبا وقلقا، بل سنوات الانتظار الطويل؛ ١٦ سنة من الدعاء والصبر ومخالفة الذين حرّضوها على الطلاق من زوجها العقيم. محاولات تلقيح صناعي كثيرة حتّى أتى مشعل لينير حياتها وحدها. رحل أبوه وهو جنين في شهره السادس. والعم، ذلك العم الذي حاول الزواج بأرملة أخيه طمعا في الثروة، وحين خاب، انسحب تدريجيا من حياتهما. لو علم مشعل بذلك، لأمكنه تفسير جفاء عمه ونأيه.

افترق معاذ عن فريق «الدينارين» لينضمّ إلى مخيّم الأمل

الجراحي الذي تبدأ أعماله الميدانيّة غدا. يودّ معاذ لو يفرّغ صدره من هذا الخَطْب، فثمة نفوس تنخزها آلام فتّاكة، نفوس اجتمع عليها العوَز والسَّغَب والمرض. يجعل هذا نبضه يتسارع بشكل لا يليق بقلبه المقسّى. يسلّي نفسه بالقول: «لا بأس، سيرتفع الكورتيسول في الوقت المناسب.»

وسواس خبيث يُنفث في نفسه؛ أما كان خيرا لو أنّه ذهب مباشرة من الكويت إلى مخيّم الأمل الجراحي في جيبوتي ولم يعلم بما حدث لمشعل؟ لكنّ وجوده مع فريق «الدينارين» أمر لم يودّ تفويته. كان معاذ مسؤولا عن التعريف بالمشروع بين طلبة كليّة الطب في الجامعة الذين تربطه بهم صلة جيدة حيث يصادفهم في تدريبهم العيادي في المستشفى. مناهزا الأربعين، معاذ الاستشاري في الجراحة العامّة هو الكهل الوحيد بين المتطوعين. يتبدّد ندمه حينما يتذكّر حماسته؛ لم يصدّق نفسه حينما علم بخط سير الرحلتين الجغرافي والزماني، كما لو أنّهما أعدتا خصيصا له. رحلة فريق «ادفع دينارين واكسب الدارين» التي تمر بالسودان ثم جيبوتي. وبعد يوم من وصولهم يبدأ مخيّم الأمل الجراحي في جيبوتي. تدهشه الأقدار.

*****

يصلّي المغرب والعشاء مع أعضاء مخيّم الأمل الجراحي السبعة والعشرين؛ ستة عشر طبيبا، وخمسة ممرضين، وثلاثة فنيي تخدير، ومصوّران، ومشرف إداري. يستمع إلى شرح قائد الفريق: «من حضر منكم الاجتماع اليوم مع وزير الصحة الجيبوتي يعلم مدى فرحتهم وترحابهم. بحمد الله، وصلت معظم المعدات سليمة باستثناء جهاز التنفس الذي وصل مكسورا، سنضطر إلى الاعتماد على الجهاز المتوفّر لديهم. فقد بعضكم أمتعته الشخصية، لم يستدل عليها للأسف حتى الآن. أما المعدّات التي تخلفت عنّا في مطار أديس أبابا، فقد وعدت شركة الطيران أن تصل عصر غد.» من حضروا الرحلات السابقة يزفرون براحة. كانت حالة المعدات التي تصل أسوأ بكثير، كسور وأعطاب، ومفقودات بأعداد أكبر. لا تزال «السفينة الطبيّة» حلما يراودهم، مستشفى عائم مجهّز بالكامل على شكل سفينة، يتنقّل بين موانئ الدول المحتاجة. تحولُ التكلفة الباهظة بين الحلم والتحقق. «أذكركم بأننا سنتوزع على ثلاثة مستشفيات: المستشفى الحكومي العام حيث ستُجرى عمليات الأنف والأذن والحنجرة، والجراحة العامة، وجراحة الأورام، وجراحة المناظير؛ ومستشفى الرحمة التخصصي التابع لجمعية الرحمة الكويتية حيث ستُجرى جراحات التجميل، والتشوهات

الولادية، والحروق، وجراحات الأطفال، وجراحات المسالك البولية للأطفال؛ والمستشفى الإيطالي حيث ستُجرى عمليات جراحة العيون.»

يعلم معاذ أنّ رفاقه وصلوا هنا عبر رحلة استمرت ٦ ساعات مرورا بمطار أديس أبابا في إثيوبيا. أمضوا صباح أمس في لقاءات مع مسؤولي وزارة الصحة ومديري المستشفيات، ثم شرعوا في توزيع الأجهزة التي وصلت حينها على المستشفيات. سيُدّور الممرضون على المستشفيات الثلاثة لاكتساب الخبرة. أمر لم يستحسنه معاذ نظرا لتفضيله الاعتماد على ممرض واحد، لكنّه يتفهم الغاية وراء ذلك. يشعر بقلق أكبر، سيعاين غدا الحالات، وسيبدأ بعد غد في العمليات. يشعر أن الجميع أكثر تهيّؤا منه، لقد رأوا أماكن عملهم، وأخذوا وقتهم في معرفة حالة الأجهزة وتوزيعها، بينما ينتهبه الخيال والخوف. يمسك بورقة جدول الرحلة بيدين متعرّقتين. يقلق من قلقه هذا، كيف يمكن له وهو الجبّار الذي يشق بطون المرضى بمنتهى البرود أن يهتزّ هكذا. يشعر زميله في الغرفة الدكتور عامر بأنّ معاذا لا يبدو بخير. يُساره معاذ بقلق الشروع في عمليات في بيئة متواضعة لم يَخْبُرها. يحكّ عامر خده مفكرا، ثم يجيب بثقة العارف: «بسيطة!»

(٣)

في الطريق إلى المستشفى الحكومي العام، جيبوتي.

يُجري عامر اتصالا هاتفيا لا يفطن له معاذ المشلول قلقا. كشف قلقه على مشعل خاصرة ليّنة من تحت درع فولاذية منيعة.

يضع عامر حقيبته على ظهره، ويربط خيوط حذائه: «هيّا استعد، سنخرج الآن.» يستغرب معاذ: «إلى أين؟» يردّ عامر على سؤاله بسؤال: «عندك مصباح يدوي؟» يهز معاذ رأسه بالإيجاب. «إذًا، حضّر نفسك بسرعة.» يأمره بحسم. يشعر معاذ بضرورة الصمت وطاعة عامر. لا طاقة له بالسؤال.

يستقلّان سيارة ميتسوبيشي رمادية من طراز لم يره معاذ من قبل، لكن يمكنه أن يخمّن أنه عائد إلى التسعينيات من القرن الماضي. يعرّف عامر معاذا بالمترجم جاد الحق. معظم أهل جيبوتي يتكلمون اللغتين العفارية والصومالية، والحاجة إلى مترجم هنا

مُمضة. رغم سيرها البطيء، إلّا أنّ عدم استواء الطريق يجعل السيارة القديمة تتهزهز. يشعر معاذ بالندم على هذه المغامرة التي تبدو متعِبة سلفا. كان الأجدر به الراحة استعداد لغدٍ مُجهِد يتربّص به. يتكلّم جاد الحق في الطريق بحماسة كبيرة ممزوجة بالشغف. يقول إنّه تعلّم العربية وأتقنها جرّاء جهود الدكتور عبد الرحمن السميط. يحكي لهم عن قريته المتواضعة، عن أمّه التي غيّبت المياهُ الزرقاء نور عينيها، عن أبيه الذي قضى في إحدى الحروب التي لا تنفك عن التوالد، عن أشقّائه الستة الذين مات أكبر أربعة منهم جوعا ومرضا. وكان هو وأخته من الموفَقين الذين تكفّلت بهم «لجنة مسلمي إفريقيا»، التي غُيّر اسمها إلى «جمعية العون المباشر» إذ تصل خدماتها الإغاثية إلى غير المسلمين أيضا. يتذكّر جيّدا اليوم الذي رأى فيه صورة السميط لأوّل مرّة. كان طفلا في الثامنة، وكان السميط رجلا طويلا عريض المنكبين، له أنف لطيف مفرود، وشفتان بارزتان توحيان بالجود، وعينان متباعدتان من الصعب تقصّي تفاصيلهما، عينان تغيبان وراء نظّارة سميكة تخفي انفعالاته. يكاد جاد الحق يقسم أنه اختارها هكذا كي لا يرى أحد الدموع تترقرق في عينيه. يطوّق وجنتيه لحية يختلط سوادها بالبياض، يكاد جاد الحق يقسم أنّ أبا صهيب كان يشذّبها بطريقة معينة كي

تبدّد الانتباه عن تعابير وجهه، وجهٌ مربوط مباشرة بقلبه، وجه من الصعب عليه أن يخفي الرحمة والصدمة والرقة والفروسية.

«قبل هذا الرجل، لم يكن أحد يعبأ بأنّ ثمّة مسلمين في هذه البقعة القاحلة ذات المطر الحَرُون أحيانا والمدمّر أحيانا أُخَر.»

يقول جاد الحق بعربية فصيحة بشكل لافت. تكفّلت لجنة مسلمي إفريقيا بأسرته، ووفّرت لأمه مشروعا صغيرا؛ تنسج الألبسة وتعتاش وطفليها من ريعها. صار في بيتهم المتهالك نعجتان وبقرة؛ ثروة عظيمة بمقاييسهم. وحين أنهى جاد الحق تعليمه، حصل على بعثة ليدرس اللغة العربية في الأزهر. لم تصدّق أمه نفسها، كانت تمشي في الحي توزع الطعام وهي تهزج. كم كان يتمنى لو أنّ الوقت أسعفه ليأخذها إلى الحج. الحج الذي لم تكن تعرف عنه شيئا، بل دينها الذي لم تكن تعرف عنه الكثير. كانت -كما كل سكان القرية- يعرفون أنهم مسلمين، ويعرفون أن نبيّا جاء من أرض العرب بكتاب كريم. كانوا يؤمنون بإلهٍ واحد، وأن ثمّة يوم فيه يحاسب كلٌ بما فعل. لكن لم يكونوا يصلّون لأن أحدا لم يعلم بوجوب الصلاة. ولم يكن هناك سوى مصحف واحد موضوع للزينة في بيت كبير القرية ليحرسه من كيد الأعادي، وليبسط الوجاهة بخطّه العربي الفخم والمقدّس. كانوا يتناقلون بينهم أن ثمّة شهر مقدس تتنزّل

فيه البركات، لكن لا تفاصيل عنه أكثر من ذلك. مُذ أن تحسنت أحوالهم، وحُفرت الآبار في قريتهم، وعرفوا شهرهم، صار السكان يصومون صياما حقيقيا لا قهريا جرّاء قلة الزاد والماء.

يصِلُون. هذا هو إذًا المستشفى الحكومي العام حيث سيجري معاذ عملياته. رغم تفكهه وزملاءه بأنّ المستشفيات الحكومية التي يعلمون فيها لا يضاهيها في التهالك والفوضى أي مستشفى في العالم، إلا أنّ ما يراه يجعله يعيد النظر في عبارتهم تلك. يشعر بأنّه في زمان سابق، وكأنه وقع في فجوة زمن عجائبية نقلته إلى الستينيات أو السبعينيات. يجيل عينيه في المكان، يكاد يقسم أنّ الألوان والصور التي يراها لا تعود إلى هذا الزمان. ألوان هذا العصر فاقعة ومشبعة وغنية، والألوان هنا ترابية وكامدة وباهتة، ألوان تذكّره بتسجيلات البث التلفزيوني حينما كان طفلا. يطلب جاد الحق من معاذ وعامر هويتيهما، ويجعلُ يرطنُ مع أحد المسؤولين.

يتجوّل معاذ في المساحة العامة الصغيرة، يتأمل الجدران، والأثاث المتهالك، يتأمل كل شيء بعين الأديب لا الطبيب. كان معاذ يتبجّح في المرحلة المتوسطة بأنّه سيكبر ويصير شاعرا. كثيرا ما كان أبوه ينهره قائلا إنّ الشعر ليس مصدرا للرزق، وإنّ

عليه أن يكون طبيبا أو مهندسا، لكن معاذا ما كان لينصاع. أخذ دروسا في العَروض سرّا مع مجموعة من الطلاب الذين كان يرعاهم الأستاذ عبد الودود، معلّم اللغة العربية في مدرسته. ثم بدأ في المرحلة الثانوية يميل إلى شعر التفعيلة. كان مأخوذا بأشعار أحمد مطر، ويحرص على حفظها. دخل مقهورا القسم العلمي. لم يمكن لقلبه المرهف أن يفطر قلب أبيه ويخيّب ظنه. وميض عيني أبيه الذي يعوّل عليه جعله ينكبّ على الدراسة. أحرز نسبة عالية أهّلته للحصول على بعثه لدراسة الطب في أدنبرا.

رائحة المعقم الرديء المستخدم في المستشفى تستثير الغثيان في نفسه وتذكّره بذلك اليوم حين واجه لأول مرة جسدا مخدّرا ممددا أمامه كِفاحا. شقّ الأستاذ البطن بهدوء تام، كطفل يلعب بالصلصال. أخذتْ أذنا معاذ تطنّان، وجعل وجهه يصطلي. أخذ العرق ينزح من كل مكان في جذعه، وصار يرى نقوشا ضوئية راقصة، ثم سقط مغميا عليه. في غيبوبته، ضحك أستاذه قائلا ببرود ممزوج بالفكاهة: «تغيير بسيط في خطة الدرس! تشهدون الآن درسا عمليا على إغماء العصب العاشر.» معاذ، الفتى الشرقي كان كلّ همه حينما استفاق أن يعلم مَن الذين أغمي

عليهم غيره، آملا أن يكون بينهم فتى واحد على الأقل يخفّف من عار إغمائه. صُعق حينما علم أنّ من أغمي عليهم ثلاثة فتيان! «يا لنساء العلوج! ماذا عليهن لو أغمي على بضع منهن؟» غمغم معاذ في نفسه حينما استفاق، آملا أن لا يطير النبأ إلى أبيه. كان سيلوم حتما الشعر وسيقول قَولا قاله آنفا: «ما خرّبك إلا الشِّعر».

يقطع حبلَ أفكاره يد عامر تضرب كتفه مبشّرةً بموافقة المسؤول على تجولهم اليوم في غرفة العمليات التي سيجري معاذ فيها عملياته.

يسير وقد فقد شيئا من صوابه، يرتطم وهو خارج بمريض داخل تفوح منه رائحة السجائر. «كم من دخله ينفق هذا المُعدم على السجائر يا ترى؟» يتساءل معاذ وهو يجزم أن هذا الداخل هو خير من يعطي محاضرة حول مضار التدخين، ثم يعقب محاضرته بسيجارة دسمة. «إنها شهوة لا شبهة يا وليدي. يسعني أن أخرجها من رأسك، لكنّك أنت وحدك من يسعك أن تخرجها من قلبك!» يتذكّر كلمات أمّه له حينما ضبطته يدخّن لأول مرة، كانت كلماتها الرقيقة كافية كي يقلع. كيف حدث أن تزوجت هذه الإنسانة-الطَيْف بكائن قاسٍ كأبيه؟ يقوده هذا

لتذكّر زميله في قسم الجراحة الدكتور سعداوي، رجل يغضب ممن يتجرّأ أن يتكلم في الطب دون أن يكون طبيبا، ويتململ من الذين يلجؤون للإنترنت لتشخيص حالاتهم، ويصب كيلا من اللعائن على العشّابين ويدعوهم بالنصابين، ويتسلّى بالسخرية من الطرق الشعبية في العلاج. من يصدّق أن هذا الرجل المفرط في إخلاصه للمنهج العلمي يؤمن بتأثير الأبراج على الشخصيات، ويصدّق خزعبلات أخرى مثل قانون الجذب و«علم» الطاقة. تُغام أفكار معاذ وتغتمّ بالبؤس الذي يحيق به مُذ بلغ إفريقيا. الأدرينالين يرتفع ويتصارع مع الكورتيسول. كيف يحدث له هذا وهو الرجل الخارق الذي شرّح جثثا، وبقر بطونا؟!

(٤)

المستشفى الحكومي العام، جيبوتي.

بلاط من السيراميك الأبيض المُصفرّ، بعض قطعه ناتئة من مكانها وبعضها الأخرى منفلقة. ستارة خضراء بلون باهت كما لو كانت خارجة من شاشة تلفزيون أيام السبعينيات. قِدر صدئة. مباضع وأدوات جراحية ممددة في صحن معدني مستطيل قديم. ثقوب في الشرشف الأخضر المفرود تحت منضدة الأدوات. مغذٍ يتدلّى من علّاق ملابس معدني أعيد تشكيله لهذه المهمة. تتذكرُ يوم اصطحبت أختك إلى «كيدزانيا». غرفة الجراحة الموجودة هناك بأدواتها البلاستيكية الناعمة الحواف تبدو أفضل حالا من هذا المكان. تنقطع الكهرباء فجأة. تعرف سر إلحاح عامر عليك باصطحاب مصباح يدوي. تود لو تسأل عن وجود مولّد احتياطي، عن الحالات التي تعتمد على أجهزة، عن ... تُحجم عن السؤال. تسلّط الضوء من مصباحك، وتعيد تجرّع المكان نظرا. أجهزة القياس، جهاز شفط السوائل الذي

يشبه إبريقا محشورا في موقد مخصص للرحلات، أنابيب السوائل التي تعلوها كدرة والملصوق أحدها بشريط لاصق في أكثر من موضع، الإضاءة الدائرية العلوية التي تعلوها بقع كلسية، كرسي الطبيب ذي الجلد المشقق، مروحة السقف ذات النقوش المتلاشية قِدما، كل شيء خارج نطاق الزمن باستثناء بعض الأجهزة التي أحضرها الفريق من الكويت، والتي تبدو نافرة على المكان، كلوحة «كولاج» ألصقت فيها قصاصات حديثة على خلفيّة معتّقة.

يمر على قلبك شريط من الوجوه السحماء الموجوعة. تتذكر بأنّ عليك إنقاذها بهذه المعدات البالية. تشعر وكأنّك «سوپرمان» فقد بذلته التي تعينه على الطيران. تتضعضع ثقتك بقدراتك. ياللسخرية! جئت هنا كي تطمئنّ على مكان عملياتك ويرتاح بالك، وإذا بك تخرج مبلّلا بالقلق.

الكورتيسول يرتفع يا معاذ. هرمون الضغوط، هرمون الأطباء! والأدرينالين يرتفع يا معاذ، هرمون الشعراء! وأنت طبيب، وشاعر مؤجل موؤود. تلملم في عينيك ما رأيت، وتأخذه إلى وسادتك التي ستتحمل رأسك الثقيل، وفراشك الذي سيتحمل قلبك الأثقل.

في الغرفة، يغطّ زميلك في نوم عميق. تتحسس من ورقة وقلم كما لو كنت مدمنا. الآن ترى نفسك وجها لوجه. تتحرر من حالة الألوهة التي يهمزها إبليس في روعك أحيانا، ذاك الشعور الذي يعتري الجرّاح بأنّه قادر. شعور الفروسية والمُكنة والخارقية، شعور الـ«سوپرمان»، شعور النمرود، شعور البطل الأسطوري الكامل القدير الذي يُنقذ نفوسا على شفا حفرة من الردى، شعور بأنّه يحيي ويميت! وحده ألم القلب يرمّم هذا العوار، يعيدك إلى نصابك، ويردّ عليك صوابك. ووحدها الكتابة تعرف كيف تستخرج هذا الألم وتفرده أمامك على الطاولة لتعاينه، لتلقي بسماعتك عليه، تشخّص مرضه، وتكتبه شعرا. بعد سنوات من الدماء الثاعبة، والأحشاء المترجرجة، والبطون المبقورة، والجلود البشرية المخاطة، وأنابيب تصريف السوائل التي يدسها في أحشاء الورى، يفقد الجرّاح قلبه كله أو كثيرا منه، يعتاد أقسى/ أقصى ما يمكن. وحدها المعاناة، وحده الألم، ألم جديد، ألم من نوع غير معتاد، يرقق القلب ويمنحه رَمَقا طازجا، يجلو قذاه ورَيْنه، يؤنسه ويؤنسنه.

لهذا كتب الله على المرأة أن تتوجع حدَّ الموت وهي تضع طفلها. لولا الألم، كانت ستظن نفسها تُجري المعجزات، تُنشئ، تخلق. لا

بد أن يعرف كلٌّ حجمَه، ولا شيء سوى الألم يؤدي ذلك.

بفرط الألم فقدتَ الشِعر، وبالألم المفرط يعود إليك. مفارقة غريبة! الألم والمعاناة جوهريان لإنسانيتنا. هذا عذاب جديد يا معاذ، هذا عذاب شديد، نوع من الوجع لم تجربه من قبل. هكذا لتتخلى نفسك وتنفض عن كتفيها رداء المُلك الطويل الذي تسحبه خلفها خيلاء، ويسحبها هو بدوره ويحرمها التحليق.

أَيْ معاذ حلّقْ، حلّق. حلّق شعرا حقيقيّا، محضا، صافيا. «اعتزلْ ذِكْرَ الأغَاني والغَزَلْ * وقُل الفَصْلَ وجَانِبْ مَنْ هَزَلْ»[٧]، واكتب شعرا ولّادا للحقيقة، شعرا عاطلا عن الرياء والتملق، شعرا مصفّى من تفاهة التدلّه وسفه العشق، اكتب شعرا قُحّا، «وما أحسنَ الشعر إذا لم يُبتذل»[٨].

أَيْ معاذ انشدْ أشعار التداوي الحقيقي، أشعار النفس التي تتخلّى فتتحلّى فيتجلى لها المعنى. أنشد أشعارا تفتّقت عن الألم لا عن الأنا. أنشد أشعار الذات المكسورة التي أدركت ضِعَتها وضياعها.

أَيْ معاذ اغرفْ، اغرف من نبع الشعر الحقيقي، ترفع عن

٧) لاميّة عمر بن الوردي.
٨) لاميّة عمر بن الوردي.

المستنقع حيث ﴿... يقولون ما لا يفعلون﴾، حيث يَهْوَون ويَهْوُون، اغرف من نبع الرحمة. بهذا وحده يتأنسنُ قلبٌ أَلِف القساوة. تتنهّد تنهيدة أجّلتها دهرا، تقول في نفسك: «أهلا أيّها الشِّعرُ العزيزُ النائي!»

(٥)

كسلا.

تقتحم الشرطة الموقع الذي تحدّد وجود الشريحة فيه، بيت تاج السر. يفتشون البيت بحثا عن مشعل فلا يجدون إلا سترته الترابية المنقوش عليها شعار الفريق. يقتادون تاج السر للتحقيق معه.

(٦)

الروضة، الكويت.

المفجوعة لم يرقأ لها دمع مُذ عرفتْ بالأمر. تمسك أم مشعل هاتفها بيدها المعروقة المتعرّقة. تنتظر اتصالا أو رسالة من المسؤولين. تتوقف عن التنفس لثوان حينما تلمح على شاشة الهاتف ورود رسالة هاتفية. المرسل «حبيب أمه»، الاسم التي تحفظ رقمه به! تفتح الرسالة على عجل مضاعف وكأنها تعوّض الثواني التي ضيعتها للتو بالصدمة وحبس النَّفَس.

«أمي الغالية، أنا بخير. اعذريني لم أتمكن من الرد على اتصالاتك. لا أزال في السودان. كنت في رحلة طويلة وفرغت بطارية هاتفي. أرسلي أحدا لجارنا أبي مشاري ليخبره أنّي في الطريق لتنفيذ وصيته. لا تقلقي عليّ. ادعي لي، ادعي لي.»

تضغط على زر الاتصال. «عفوا، لا يمكن إتمام مكالمتك لوجود ضغط على الشبكة.»

تحاول مرارا دون جدوى. ترسل بأصابع مرتعشة رسالة هاتفية:
«أين أنت يا نظر عيني؟»

يرد بعد دقائق: «في الطريق إلى دارفور.»

يفرغ فؤادها. تذهب غضبى إلى بيت الجار لتتفاهم معه!

(٧)

مركز الشرطة، كسلا.

«خيرٌ لك أن تتعاون معنا. كل الأدلّة تقول إنّه كان عندك؛ بيتك كان الموقع الذي أرسل منه رسالة هاتفية لصديقه، ووجود سترة الفريق التطوعي الخاصة به مخبأة في صندوق في مخزنك يعني أنّك وراء اختفائه.» يقول له الضابط بثقة عارمة.

يشعل سجارة على ريث، ينفث الدخان في الهواء. يمسك مسطرة بلاستيكية موضوعة على المكتب، يجعل يضربها بحافة المكتب بشكل متكرر وهو يتكلم: «الفتى أرسل رسالة لأمه يقول لها إنّه متوجّه إلى دارفور. هاتفه مغلق أحيانا أو لا يستقبل مكالمات. يبدو أنّ الخاطفين سمحوا له بإرسال تلك الرسائل كي يعرف أهله مكانه. هكذا يستدرجونهم إلى مكان طلب الفدية. وأنت تعرف كل شيء، وستتعاون معنا. إذا أرشدتنا إلى شركائك، إلى الرأس الأكبر، يمكنني أن أتوسّط لتخفيف العقوبة عنك. وإن لم تفعل ...» يضرب الضابط المسطرة بحافة المكتب ضربة تكسرها.

(٨)

المستشفى الحكومي العام، جيبوتي.

تمضي أنت والأطباء الستة عشر نهارَ اليوم تعاينون الحالات كلٌّ وفق تخصصه، ووفقَ جداول مقترحة من وزارة الصحة الجيبوتية. ٤٧٦ حالة، تحتاج ٢٥٤ منها إلى جراحات تبدأ عصر اليوم.

معجونا بالإنهاك والأنين والدموع والرطانة، تُطالع جدولك للأربعة أيام ونصف القادمة، تضع أوقاتا تقريبية لكل جراحة ستجريها. تسلّم الجدول إلى المعاون لينسّق حضور المرضى والأطباء الجيبوتيين المتدربين الذين سيحضرون الجراحات لاكتساب الخبرة.

تتزيّا بالأخضر، ينتأ أنفك الأقنى من وراء لثامك، تضع على عينيك نظّارة يشرئب منها مقرابان صغيران، وفوق رأسك تاجٌ مكلّل بالأضواء. تلمح نفسك في مرآة المغسلة المتهالكة، لأول مرة تنتبه أنك بزي العمليات تبدو كجرادة خضراء! تود لو أن

الظرف يسمح لك بالقهقهة.

في رابع جراحة تجريها اليوم، يتشبث بصدرك ألم غريب، ألم أثيري، ألم غير قابل للتفسير الطبي، ألم لا يزول بالتنفس العميق، ألم لا يسببه التعب بل ينتج من الألم نفسه، ألم يتناسل، ألم يلد ألما كمَثَل دمى الـ«ماتريوشكا» الروسية التي تحمل كل واحدة أخرى في جوفها. تصابر كيما تُنهي خياطة الجرح.

أيْ معاذ، شُبِّهَ لك أنّ محارتك منيعة، وأن الكائن الرخو الذي يسكنها قضى منذ زمن. دقّات عنيفة على المحارة؛ وابل من صور الألم الجديد، من الشجو والشجن، من عيون تعرض لك ألما لم يسبق لك التعرّض له، ألم لَمْ تعدّك كلية الطب للتعامل معه. تشعر بأنّ كورتيسولك ما عاد مُجديا، وأنّ القهوة ما عادت تمنحك القدرة على المضي، وأن جَلَدك وفروسيتك وقلبك الصقيعي كلها تهتزّ كأغصان جافة جاءها موسم الربيع وهي لا تزال ذاوية وخارج نطاق الزمن، وأنّ مشرطك/ سيفك ما عاد يمكنه أن يعالج كل شيء. يموت الكائن المتألّة الذي كان يجثم فوق المحارة، تنفرج، هباءات متطايرة من أرض العَفار تتسلّل بمحمومية، تصيب إحداها الكائن الشاعري المنزوي في داخل المحارة، يستفيق من غيبوبته، يستحيل لؤلؤة.

تنزع عنك قفازيك بعنف عجِل. كان من عادتك أن تفعل ذلك شوقا للقهوة، سلواك التي تعبها عبّا بين الجراحة والأخرى. ما عادت القهوة تهمك اللحظةَ، توق أكبر يعبث في صدرك. تطلب من الممرض ورقة وقلما فورا. تترك الأطباء الجيبوتيين المتدربين الذين يظنّون أنّك غادرتهم لتكتب تفاصيل مهمّة متعلقة بالحالة. يعتلج في عروقك الكورتيسول مع الأدرينالين. تميط عنك لثامك الأخضر، تقصف على الورقة، تتفصد جبهتك عرقا، ويتفصد قلبك شِعرا. تكتب، تكتب، وتود لو تنادي الممرض كي يمسح وجهك الغارق. بقع تحت جناحيك، لم يعد اللباس لائقا بطبيب تنتظره أربع عمليات أخرى اليوم. تنساب الكلمات على الورقة، تشعر بأنّك تغرف من بحيرة، تكتب كما لو كنت مقهورا على هذا الفعل. تكتب باستمرار كما لو كنت آلة، وبشغف كما لو كنت فارسا. تمتلىء الورقة، ينتقل بعض حبرها إلى يديك المبلولتين انفعالا، العالقة بهما رائحة المعقم، والمسحوق المغلّف لقفازيك، وبقايا دماء تسربت إلى داخلهما. ينعجن كل هذا، ينتقل إلى الورقة وأنت تقلبها وتواصل الكتابة. حبة القراصية المجفّفة القابعة في أيسر صدرك تتشرّب ماء الشعر، ترتوي، تكبر، تعود بهيّة ريّانة.

(٩)

مطعم الفندق، جيبوتي.

يجتمع الأطبّاء على العشاء، آخر عشاء لهم هنا. يتداولون حديثا لو يسمعه غيرهم، لأحجم عن الأكل دهرا. شفاه أرنبية، تقنيات الغرز الجراحية، فتائل، خرّاج، ورم في الرقبة، سلس بولي، فتاق، استئصال أورام قولونية، مياه زرقاء على العينين، استئصال رصاصات، طحال متضخم، داء الفيل، حروق من درجات مختلفة، أورام حميدة وخبيثة وأخرى مشكوك في أمرها، ورم على جانب الرأس يزن كيلوغرامات كما لو كان رأسا ثانيا.

وقت التحلية يتندرون بقصة فيصل الذي استمرت جراحته تسع ساعات ورفض أن يُخدّر قبل أن يفرغ من تلاوة آيات من القرآن الكريم وأذكار النوم. وبقصة هبة ذات الرابعة عشرة المبتلاة بورم كبير في البلعوم والحنجرة، والتي هربت من المستشفى فزعا من الجراحة. بعد بحث استمر ساعات أعيدت إلى المستشفى في السادسة مساء. وعلى عكس ما كان الجميع يتوقّع ، استؤصل

الورم الضخم بالمنظار دون الحاجة إلى الجراحة التقليدية.

يعاود الأدرينالين والكورتيسول لعبتهما. تُغام عينا معاذ، ثم تشرقان. النور الجديد لا يمكّنه من أن يرى شيئا سوى ورقة المحارم الموضوعة على الطاولة. يسحب قلما من جيب قميصه، وينكبّ يكتب.

(١٠)

الروضة، الكويت.

سلبه الجدري بصره، وحفر في بشرته حُفرا جليّة رغم أخاديد الزمن الممتدة في صفحة وجهه الثمانينيّ. «جيل البيكاتشو» لا يعرف عنه شيئا، ذاك المرعب الذي كان يفتك بالبشر فيردي كُثُرا، ويترك البقية مشوهين أو أكفّاء. جيل لم يسمع بسنة الجدري التي عصفت بالكويت أوائل الثلاثينيات الميلادية، فقصفت الأرواح قصفا.

ضربات عنيفة على الباب، وأخرى متلاحقة على الجرس. يهرع سائق أبو مشاري الذي يرافقه ويعتني به بعد أن توفيت زوجته وابناه في حادث سيّارة قبل عقدين تقريبا.

تدخل باندفاع. «أعد إليّ ابني وإلّا سلّمتك إلى المخفر!» تصرخ أم مشعل وهي تشدّ أبا مشاري من ياقة دشداشته. يبدو المسكين المحدودب كغصن هزيل في يديها. يحاول سائقه التدخل، لكنّ أبا مشاري يطلب منه التنحي. «لِمَ الغضب يا أم مشعل؟ اذكري

الله!» يقولها وهو يمتشق نَفَسا عزيزا. «تجنّد ابني للحرب ولا تريد مني الغضب؟!» تمعن في جرّه من ياقته، وهي حريصة في الوقت ذاته أن لا تلمسه، وتنجح في ذلك. «أي حرب؟ أي حرب؟» يقولها بنفس لاهث وبصوته المبحوح من شدة الهرم. «يقول إنّك أرسلته إلى دارفور لتنفذ وصية ما. ابني الآن بين الجنجويد بسببك! ابني عِلكة للصحف بسببك. خوفي أن أرى اسمه في الصفحة الأخيرة في المربع إياه لا سمح الله!» تجهش بالبكاء: «شعوّلي، يا نظر عين أمك!» يعتصر أبو مشاري ذاكرته، يجيب: «الحرب هناك انتهت يا بنت الحلال منذ أربع سنوات تقريبا! لقد طلبت منه ببساطة أن يبني مدرسة للقرآن هناك. نسبة المسلمين في دارفور ١٠٠٪، وهي تشتهر بالحُفّاظ. فلتفخري بابنك!»

تهدأ قليلا، تفلت ياقته، لكنّها تجيبه بعدائية: «ولم لا تبنيها بنفسك؟ لِم تخاطر بأبناء الناس؟» يتلمّس طريقا نحو الأريكة، يجلس لاهثا وكسيرا. «لقد آثر الله ابنك عليّ! لو كنت مبصرا، ولو كان أبنائي هنا ... لا أقول سوى الحمد لله. لم أرَ في مشعل ابنا لي، بل بصرا وبصيرة.» يتنهد، يرفع رأسه إلى الأعلى كما لو كان ينظر إلى صورة في الأعالى. «تكرّرت الرؤيا ذاتها عليّ

ثلاثا. شاورت معبّرين ثقاة، وكلهم أشاروا أنّها رؤيا خير لمشعل ولي وللذين سينتفعون بمدرسة القرآن. أمضيت ٤ شهور أجمع المبلغ. اقتطعت من راتبي التقاعدي، واستلمت مبالغ من أصحابي المقربين الذين لا يؤكد لهم شيء بأنّ المشروع سيتم سوى الثقة التي بيني وبينهم. كل هذا، دون أن يكون عندي فكرة كيف أفاتح مشعلا بالموضوع. وحين اكتمل المبلغ، تفاجأت بمشعل يعلن في الديوانية أنّه سيذهب بعد أسبوعين في رحلة خيرية إلى السودان وجيبوتي. عرفت حينها أنّ هذا تأويل رؤياي.» يسود صمت وجيز. «سأذهب الآن معكِ إلى المخفر لأدلي بما أعرفه. ولتكوني على ثقة بأنّ ابنك بخير، ليس لأني أقول لك ذلك، بل لأنّه بأعين الله.» يشير إلى سائقه الذي يساعده في القيام والمضي.

تعود إلى بيتها، ينتظرها في الصالة رجل مُوغل في الشيخوخة، يتعكّز بصعوبة على عصا أصابها الكِبر هي الأخرى. يسأل بقلق بالغ عن مشعل. لم يبلغه النبأ مكتملا. يسألها بجديّة عن صحّة مشعل، متوجّسا أن لا يكون قد أخذ معه كيس البصل كما أمره!

فرار

«ودّعتك الله يا نظر عيني!»
(أم مشعل)

(١)

مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

انطلق الرَهْط. رحلة استمرت ٣١ ساعةَ قيادةٍ فعلية، بالإضافة إلى ستّ ساعات من التوقف للراحة. من ولاية كسلا، مرورا بولاية الخرطوم، فولاية شمال كردفان، إلى ولاية شمال دارفور. تقاسم الطريق المخيفة مع الفاتح بن تاج السر، وبشير سائقِ السيارة ودليلِ الطريق. تتوقف السيارة فجأة. ينحني بشير ليعاينَ الضرر الواقع عليها، ثقب في هيكلها وبعض الخدوش التي لم تؤثّر على شيء مهم. تعرّضت سيارتهم لإطلاق نار من مجهولين عند دخولهم ولاية شمال دارفور، لكنّهم لم يتوقفوا حينئذ لاستطلاع الأمر. رغم فرض حالة الطوارئ، لا يزال الوضع غير مستقر. «بسيطة، الحمد لله. السيارة سخنت، لكن وصلنا تقريبا.» يقولها بشير وهو يمسح العرق عن جبهته وعن خديه اللذين تختلط فيهما التجاعيد بشلوخ على شكل خطوط عمودية، سمة تميز أبناء هدندوة، إحدى قبائل شرق السودان.

اسم تردد في نشرات الأخبار لسنوات، لكن قليل ما يعلمه مشعل عن دارفور. إقليم يلتهم خُمس مساحة السودان وفقما رأى على الخارطة. يشعر به مكانا خارجا من أتون الحرب للتو، الحرب التي تضع أوزارها كالعادة وتمضي. الحرب التي تعتلف الطمأنينةَ، تتمخض بؤسا وتشريدا، تتمطّى، وتَنْسلُّ تبحث عن عش جديد.

لا يبدو الفاتح مرتاحا البتة. لقد صادر منه أبوه هاتفه العزيز، واستودعه في عهدة بشير، أحد أصدقائه المخلصين. يشعر بأن الخناق ضيق، وبأنه يريد الفرار، لكنّه لا يجد له سبيلا. يتأمّل مشعل الذي يكبره بسنتين أو ثلاث. يشعر بأنّ عينيّ مشعل تبرقان بسرّ ما، لكن لا يهتمّ الفاتح أن يعرفه. لا يزال مغتاظا من إجبار أبيه إياه على مرافقتهم في الرحلة. قال له إنّه ضيفهم وإن عليه أن يكون في رفقته ويحميه نظرا لاستثقال اللهجة عليه. حين جادله بأن بشير يفي بالمهمة، قال إنه يقترب من السبعين، ولا يقوى على ذلك. بدا له بشير أصغر من عمره بكثير. لذا، يشعر الفاتح بأنّه المستهدف من هذه الرحلة، وأنّ أباه يستهويه أن ينتزعه من عالم الإنترنت الذي يجد نفسه فيه. يودّ لو يطلب من مشعل أن يعيره هاتفه النقال قليلا، لكنه يعلم جيدا أنه بطاريته

فرغت بُعيد ساعات من انطلاقهم.

يتذكّر مشعل بأن عليه أن يتصل بأمه ويطمئنها عليه، وكذلك بمعاذ. يسأل بشيرا ببراءة ناصعة عن مكان الفندق. «على مبعدة عشر دقائق من هنا تقريبا. انتظر فقط حتى يبرد محرك السيارة وننطلق.» يستدرك بشير: «وللأمانة يا مشعل يا ولدي، لا يوجد فنادق في دارفور!»

(٢)

مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

بيت من ثلاثة أدوار. أبلى من أن يوصف بأنّه صالح للسكن. لكن حين مقارنته بالبيوت التي مروا عليها وهم في الطريق، يمكن أن يُقال إنه المكان المخصص للمَرضِيّ عنهم!

يتبع مشعل بشيرا بتسليم تام. إرهاقه وتعجّله الاتصال بأمّه يفقدانه فضوله ويبددان أسئلته. كل ما تبحث عنه عيناه، مقبس كهرباء ومحوّل مناسب لهاتفه. لم يتمكّن من شحن هاتفه في المكان الذي توقفوا للاستراحة فيه، لأنّه لم يجد محوّل كهرباء. مقابس السودان تتبع النظام الأوربي، بعكس الكويت التي تتبع النظام الإنكليزي.

يوقفهم الحرس المحيطون بالمبنى، يُشهرون أسلحتهم. يتفاهم بشير معهم، يطلب منهم استدعاء عيدروس. «كيف يمكن أن تسير الصدف هكذا؟ كيف يتفق أن يكون بشير صديقا لتاج السر، بشير الذي يعمل أحد أنسبائه (عيدروس) في المسكن

الذي خصّصته حكومة الولاية لاستقبال مندوبي الهيئات الإنسانية والجمعيات الخيرية الذين يأتون إلى الفاشر لأعمال إغاثية؟» يسأل مشعل نفسه. «لأنّها أقدار لا صدف.» يجيب عليها.

لا يطمئن حتى يجد مقبسا ومحوّلا مناسبين، يترك هاتفه ينهل وهو ينتظر الحد الأدنى الذي يمكنه من فتحه. يسأله بشير عمّا يحتاجه هو والفاتح. «ليس من المأمون أن تخرجا، بعد قليل يحلّ المغيب. أبلِغا عيدروسا بما تحتاجان، وسيتدبّر الأمر.» كان بود الفاتح لو يقول إنّه يريد هاتفه، لكن «ما لا يدرك كله، لا يترك جله». يسأل الفاتح مشعلا عن الشبكة التي تنتمي لها شريحته. يخيب أمله حينما يخبره أنّها شريحة كويتية. كان يخطط أن يطلب من عيدروس أن يحضر له بطاقة رصيد هاتفي ويستعير هاتف مشعل بعض الوقت ويستمتع بالإنترنت. ينتبه مشعل أنّه يحتاج إلى ثياب، وفرشاة أسنان ومعجون، وفوطة، وملابس داخلية، وجوارب،... وكل شيء تقريبا. حقيبه ظهره لا تحوي سوى أشياء بسيطة، أهمها الأمانة التي استودعها إياه أبو مشاري. بقية متاعه في حقيبته التي لا تزال في مطار الخرطوم. يسمعون إطلاق نار عن بعد. اعتيادهم ذلك يحملهم على عدم الاهتمام. يخلدون

إلى نوم ثقيل. يبيت مشعل والفاتح في غرفة واحدة، ويشاركهما بشير الغرفة نائما على الأريكة إلى أن يغادرهم صباح الغد.

حينما يوقظهم عيدروس لصلاة الفجر، يجد مشعل بطارية هاتفه -الذي نسيه بمجرد رؤيته الفِراش- شُحنت بالكامل. يحاول الاتصال بأمه، لكنّ الشبكة أضعف من أن تحمل اتصاله. يرسل إليها رسالة يطمئنها على نفسه. يرتاح حينما ترد عليه بعد دقائق، لكنْ يتعجّب من هدوئها. ترسل إليه تطلب منه أن يؤدي الأمانة ويعود سالما. كان يتوقع أن تمطره برسائل تستجديه فيها العودة. تمر دقائق أخرى وتصل رسالة تطلب منه فيها أن يعتني بنفسه، ثم تختمها بعبارتها المعهودة: «ودّعتك الله يا نظر عيني.» لولا هذه الرسالة، لظنّ مشعل أن خطبا ما أصاب أمّه.

(٣)

المسكن، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

يستيقظ مشعل مجددا أواخر الضحى. يطلّ من نافذة الغرفة الواقعة في الدور الثاني. النافذة المحاطة بأعمدة حماية متلاصقة مما يجعلها أشبه بباب سجن. ينظر إلى الفضاء الأجرد حوله، وإلى الشارع البعيد الذي تزدحم فيه السيارات. «دفتا المصحف»، هكذا تسمّى دارفور التي حصلت على اسمها نسبة إلى قبيلة الفور التي تسكنها، هكذا أخبره بشير أثناء الطريق. أمّا سر تسميتها «دفتي المصحف» فكثرةُ الخلاوي أو خَلَوات حفظ القرآن الكريم. يتشوّق مشعل أن يرى واحدة.

كانت دارفور سلطنة من القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر. كان «علي دينار» آخر حكّامها، ويقال أنه ظلّ يرسل من دارفور كسوة للكعبة على مدى عشرين سنة. يدّعي سكان دارفور أنّ ميقات أهل المدينة « ذي الحليفة» سُمي لاحقا بأبيار علي حينما ذهب علي دينار إلى الحج، فتكفّل بحفر الآبار هناك حينما

ساءه حال المكان. غير أنّ بشيرا أكّد له أنه هذا غير صحيح لأنّ التسمية وردت في كتب التاريخ قبل أن يُولد علي دينار. لكنه نصح مشعلا بأن ما من داعٍ لمجادلة الدارفوريين في هذه المسألة.

يرى صاحبيه ممددين، تقعقع فوق رأسيهما مروحة السقف التي توقّفت مرتين البارحة جراء انقطاع الكهرباء دون أي ينتبه أي منهم إلى ذلك. يبربر الفاتح أثناء نومه بين الفينة والأخرى؛ يعتب على أبيه، يشتم أحد أصحابه، يصرخ ويعلو شهيقه بين جولات العراك اللفظي قلقا من أن يكون هاتفه فُقد أو كُسر.

حالة طوارئ، إطلاق نار، مبنى محصَّن. يشعر بأنّه في منطقة حرب. يقلق مشعل على الظرف المكتنز بالدولارات. يرفع الفراش الثقيل، يتطاير الغبار في وجهه، يدفن الظرف تحته، ينتأ واضحا. يفطن إلى كيس بلاستيكي في حقيبته، يصف العملات فيه بحيث تمتد على رقعته. يدفنه تحت السرير. تبا! أول مكانين يبحث فيهما المجرمون عن الأموال، الخزائن وأسفل الفُرُش. أين يخبئه؟ تحت السجادة؟ في الدرج المهترئ؟ في كيس مخبّأ في «سيفون» الحمّام؟! الغرفة الوضيعة لا تعطيه خيارات لإخفاء المبلغ. يجيل مشعل عينيه في الغرفة، تقعان على حذائه المدسوس فيه جورباه النتنان. كيف فاته أن يرمي بهما في القمامة؟ تلمع

الفكرة في قلبه على غير توقع منه حتى أنه جعل يضحك ضحكة باطنية يتسرّب منها حرف الخاء إلى درجة تكاد تقلق رقاد صاحبيه. ينتبه -وهو يجذب جوربيه من الحذاء- إلى كيس فيه الأغراض التي طلبها. يبدو أنّ عيدروسا وضعها هنا حينما كانوا نياما. ينبش فيه، ويجد بغيته. يتناول الجوربين الذين أحضرها عيدروس، لا يعلم كم شقي المسكين وكم دفع كي يأتيه بهما! يقسّم المبلغ أربعة أقسام، يطوي كل قسم ويدسه داخل أحد الجوارب، يلف الجورب المثخن حول نفسه بإحكام حتى يصير كالكرة. يصعد فوق السرير، يرمي بالكرات فوق خزانة الثياب!

(٤)

المسكن، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

ينزل مشعل إلى الطابق الأرضي. يبحث عن عيدروس فلا يجده. يرى في الصالة الجانبية وعلى طاولة طعام متواضعة رجالا يبدو أنّهم أوربيون. يطلّ برأسه، يلاحظون وجوده، فيدعونه لمشاركتهم الإفطار. خمسة يرطنون بلغة يخالها الإسبانية أو الإيطالية.

إنكليزيّته المتواضعة لا تشجّعه على الحوار معهم إلا لماما. يعرف منهم أنّهم جاؤوا إلى هنا عبر الطيران الداخلي. يغتاظ مشعل لعدم إخبار تاج السر إياه بهذا الخيار! كان يمكنهم أن يذهبوا من كسلا إلى الخرطوم بالطائرة أو بالسيارة. ومن الخرطوم إلى الفاشر بالطائرة. يزداد غيظه حينما يعلم بأنّ الرحلة من الخرطوم إلى الفاشر تستغرق ساعتين بالطائرة فقط.

يعود عيدروس. يبدو مهتمّا بالفاتح ومشعل نظرا لصلة القرابة

بينه وبين تاج السر الذي أوصاه بهما خيرا. يخبر مشعلا بأنّه رتّب لهما بعد صلاة الظهر زيارة لإحدى «الخلاوي». لعيدروس عينان واسعتان جاحظتان قليلا، تمتد فيهما عروق حمراء على الدوام. يقترب منه مشعل، يهمس له: «الجماعة، ما قصتهم؟ هل هم صحافيون؟» يتبسم: «الخواجات الطليان؟» يهزّ مشعل رأسه. «جاؤوا لتوزيع المعونات. تخيّل، استأجروا طائرة خاصة ملؤوها بأكياس الذرة والعدس والسكر لتوزيعها على الأهالي. وأحضروا معهم حقائب مليئة بالسكاكر والحلويات للأطفال.»

لتزجية الوقت ولتوثيق العلاقة، يسأل مشعل عيدروسا عن الأعراس هنا. كان قد شاهد على اليوتيوب مقطعا لعرس قبيلة الجعليين، حيث يضرب العريس أشقاءه ورفاقه بالسوط، ردا لجميلهم له بأن ضربوه بالسوط في أعراسهم فـ«ركز» وأظهر رجولته واستخفافه بالألم. يسترسل عيدروس شارحا طقوس الزواج في قبيلته «بني عامر»، طقوس يطابق بعضها طقوس الزواج في الكويت قديما التي ما فتىء جدّه يرويها له. في الكويت «تُحجّر» الفتاة أحيانا لابن عمها، وكذلك العامرية تحجز له وتُعلّم ذراع الطفلة بجريد النخل دلالةً على ذلك. وكلا العروسين –السوداني والكويتي– كان يمكث بعد الزفاف في

بيت أهل زوجته أسبوعا يعامل معاملة الملوك. لا يجوز للمرأة العامرية أن تأكل أو تشرب أمام زوجها أو أي من الرجال، وكذلك كانت الكويتية قديما، تنتظر فراغ زوجها من الأكل ثم تأكل.

(٥)

المسكن، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

متأخرا يستيقظ، ومنتعشا. يشعر بأنّ جناحيه أقل شللا، وأنّ الشدّ العضليّ الذي يلازم ظهره منذ أكثر من سنة ما عاد بذاك السوء. يبرّر الفاتح الأمر بأنّ الإرهاق الذي أصابه جراء الرحلة أنسى جسده آلامه، كمن ينسيه جرحٌ طارىء ألمَ الغضاريف المزمن. لسبب لا يريد التمعن فيه، يشعر بأنّه شاب في السادسة عشرة والنصف حقيقةً.

لا يزال بشير نائما. كان أكثرهم تعبا بحكم السن، وبحكم توليه القيادة. يشخر من فِيه، وينخر من أنفه. منظره كان داعيا للتصوير. يتذكر الفاتح أنّ هاتفه ليس معه. يتبدد شعور البهجة، يتذكّر بأنّه حري به أن يغتمّ لذلك.

(٦)

إحدى الخلاوي، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

ينقل عيدروس مشعلا والفاتح بسيارة رباعية الدفع متهزهزة إلى إحدى الخلاوي القريبة. حوار مع عيدروس، ودهشة عارمة تجرف مشعل حين يعلم أن السودانيين يسمون المسجد «مسيد» كما يفعل الكويتيون! تبدو الشوارع بدائية ليس لمشعل فقط، بل للفاتح أيضا. تنحرف بعد فترة السيارة وتمشي على الرمل. يمعن عيدروس في الضغط على الدواسة لئلا تنغرس العجلات. يصِلون، يترجّلون.

يسمع مشعل أزيز الفتيان. تتعامد الشمس على رأسه. يحدس بأن ما يراه سراب، لولا أنّ اقترابه يزيد في وضوح المشهد، ويُعلي الصوت. جدار من الطوب الأحمر، أعمدة من جذوع الأشجار، سقيفة مغطاة بالجريد، وحلقة هائلة تمتد بضعة أمتار. في وسطها يجلس شيخ الخلوة مرتديا ثوبا أبيض، ولافّا عمامة بيضاء كبيرة على رأسه، يردد سورة «يس».

بأقلام من البوص، وبنوايا التمر يغمسها الصغار في محابر مصنوعة من قوارير كانت أوعية لأشياء مختلفة، يشرع الفتيان في الكتابة على الألواح التي يتأمّلها مشعل بدهشة. ألواح مستطيلة، في رأسها عمود صغير يعلوه مثلث يسهّل حملها. يكتب الفتيان عليها بحبر يصنع هنا؛ مزيج من السُّخام، وشعر الأغنام، وصمغ الهشاب. وحين يفرغون، يمسحون اللوح بالماء ويجففونه فيعود لا شية فيه. يُفتن مشعل بالمشهد. يلتقط صورة للطلبة الممسكين بالألواح.

يُملي الشيخ عليهم الآيات، يكتبونها على الألواح، يرددونها في سرهم إلى أن يحفظوها، ثم يسمّعونها. «خلوة؟!» يستغرب مشعل. كل هذه الجلبة، والشمس التي تزاحمهم، والفيح، والجوع. كيف يختلون بالقرآن في ظل هذه الظروف؟ «هل تعلم أن عشرات الآلاف في السنة يتمّون حفظ القرآن بهذه الطريقة؟» يخبره عيدروس.

يبشّ يعقوب شيخ الخلوة للزائرين. يحيّون بعضهم بالطريقة السودانية؛ سلام الكتف. «عندي ضيف من كسلا، وضيف من الكويت.» يخبره عيدروس. يصرّ يعقوب أن يتناولوا طعام الغداء مع طلبة الخلوة.

يجلسون مع الطلبة على سِماط قماشي مخطّط. لا يحظى الطلبة إلا بعصيدة مصنوعة من الدخن، وتمرتين اثنتين لكل منهما، تمرتين يابستين لا بد من تبليلهما بالريق حتى تُستساغا. يحتفي يعقوب بالضيوف بأن يقدم لهم طبقا من الويكة. «ملوخية؟» يسأل مشعل متفائلا. «الويكة» يجيبونه. إقبالهم عليها يشجّعه. طعم غريب ينث القشعريرة في بدنه كله. «كيف تُصنع؟» يستبشرون بسؤاله، يظنونها أعجبته. «من طحين البامية المجففة.» ينفضّ إلى العصيدة المصنوعة من حبوب عهد فيها أنها تستخدم علفا. يقهر نفسه عليها، على الطعم والرائحة. ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يقول لنفسه الحرون، يروّضها، ثم يطلقها رشيقة تعدو.

(٧)

المسكن، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

يقف «ستيفان» مع صحبه بعد أن بدّل ثيابه. يرتدي ثوبا أبيضَ، ويحيط بكتفيه رداء قصير قرمزي اللون. يختفي الرهط خلف جدار قصيّ. يأتي الأطفال تباعا، يحصلون على حصصهم من السكاكر بعدما سمعوا عن طعمها الحلو. ينظّم أحدهم صفوف الأطفال، يعطي كلا منهم قبضة من الحلوى، ويقتاده صوب ستيفان.

يغرف ستيفان الماء من طاسة ذهبية لامعة، ينضح الماء على رأس كل طفل ثلاثا. يتلو: «باسم الأب والابن والروح القدس.» يفلت الطفل الذي يكركر ظانا بأن الرجل يلعب معه لعبة رش الماء.

يقول أحد الموجودين لصغير يهم بالخروج: «لقد عُمّدت، لقد دخلت مملكة يسوع إلى الأبد يا صغيري. تحيا مسيحيا وتموت.

فلتهدَ إليه. وإن تأخرت، سآتي يوما لآخذ بيدك إلى طريق النور.
أعدك. فليتحقق مجد الرب.»

(٨)

المسكن، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

في غرفته، يتأمّل على هاتفه صورة الأطفال وهم يمسكون بالألواح بشغف. تتولّد عنده رغبة عنيدة في نشر الصورة. رغم هجرانه لوسائل التواصل الاجتماعي مُذ سافر إلى السودان، إلا أنّ هذه الصورة حرّكت فيه أشياء كثيرة. يعلم جيدا أن نشر هذه التغريدة قد يلتهم رصيد هاتفه المتبقي كله، لكن لا يسعه المصابرة. يحاول مرات عديدة، وتأبى الشبكة. وفي المرة التاسعة، تُرسل التغريدة مع الصورة بنجاح.

يلازم أطفالنا الآيپاد، وأطفال دارفور يلازمون هذه الألواح يحفظون بها القرآن!

يلاحظ أن «التنبيهات» يظهر بجانبها علامة تقول ٥٤٨! عدد الرسائل الخاصة ٨٢. يستغرب العدد. «لا بد أنّي غبت طويلا، أو أنّ أصحابي يعانون الفراغ!» بطء الشبكة وخوفه على رصيده لا يشجعانه على إلقاء نظرة.

تقع تغريدته وقع الصاعقة، يُفزَّع القوم: «هل أفرج الخاطفون عنه؟» تتوالد التكهنات.

(٩)

إحدى الخلاوي، مدينة الفاشر، ولاية شمال دارفور.

يطلب مشعل أن يعاود زيارة الخلوة في المساء. يتفاجأ بأنّ الفاتح يصرّ أن يذهب معه. يبدو له الفاتح أكثر إقبالا على الحياة، يبدو له مراهقا طبيعيا أكثر من ذي قبل.

يُعيد الفاتح اكتشاف أشياء عديدة، من بينها مشاعره. يشعر بشوق مُحرق لأهله. شعور طازج لم يجربه مُذ كان طفلا. يتمنّى لو كان هاتفه معه لا كي يعود لإدمانه المعتاد، بل كي يهاتف أهله. يُزمع الاتصال بهم غدا من هاتف أرضي.

يتحلّقون حول «التقابة»؛ من تقاليد الخلوات أن تُشعل النار مساء ويجلس حولها الشيخ والتلاميذ. يبدو الجو لطيفا، أم أن جسده بدأ يتأقلم كما يقول معاذ؟ آه، معاذ، أين هو يا ترى؟ لا بد أنّه الآن يعارك في غرفة العمليات.

بدا شكل مشعل والنار تنعكس عليه أثيريا كما لو كان آتيا من

عالم آخر؛ وهج برتقالي يطلي وجهه، فيما يحرك الهواء شعره المنسدر المسترسل. يجعل يفكّر كيف يمكن أن يبني خلوة لائقة؟ من أين سيأتي بالإسمنت والفولاذ و... يقطع حبل تساؤلاته صياح الفاتح، يراه يمازح الفتيان ويلعب معهم ويتسابق. يمضون الليل يتسامرون، يتبادلون بعض الألغاز، يجرون مسابقات، يفوز مشعل بقلم من البوص، يحرّزه هدية عزيزة في جيب بنطاله.

يلمحون سيارة رباعية الدفع تقترب منهم بسرعة، ينزل منها مجموعة من رجال الشرطة، معهم رجل مدني. يقترب أحدهم سائلا: «أين مشعل؟» يقترب بتوجس، يحدس بأنها عصابة متنكرة عرفت بأمر المبلغ الذي لديه. يطمئن لأنّه خبأ المال في مكان لن يخطر على بال أعتى المجرمين. لكن ماذا لو عذّبوه ليجبروه على الاعتراف؟ يقترب منه الرجل المدني، يعرّف عن نفسه بأنّه موظّف في سفارة الكويت في الخرطوم، يصافحه بحرارة ويسأله عن حاله، يستبين مشعل لهجته الكويتية، ليستْ عصابة إذا.

«هداك الله يا مشعل! الدنيا مقلوبة في الكويت، وأنت هنا تتسامر وتشرب الشاي؟!» يهمّ مشعل يرد مدافعا: «لا يوجد

شاي في هذه الخلوة للأسف، هل تعلم أنّ ...» يقاطعه: «بسرعة، سنغادر إلى الطائرة التي تقلع بعد ساعتين إلى الخرطوم. جوازك معك؟» يسأله باهتمام، «لا، في المسكن.» يحك ذقنه ويأمره: «فورا تذهب معنا لإحضاره.» ينتفض مشعل: «لا يمكنّ، لا أستطيع العودة الآن، عندي عمل لم أنجزه...» يقاطعه موظّف السفارة: «حبيبي. أنت لا تزال تحت الحادية والعشرين. وعندي أوامر بأن تعود. هيّا، تفضل معنا.»

«تعال يا فاتح.» يلتفت إلى الرجل: «صديقي، يجب أن يرافقني لحزم بعض أمتعتي المهمة، هكذا أسرع.» يوافق. تنقلهما سيارة الدفع الرباعي إلى المسكن على عجل.

«هيّا ساعدني، أحتاج إلى سلّم.» يستصرخ مشعل الفاتح الذي يعود خالي الوفاض، سائلا عمّا يريد مشعل إنزاله من أعلى الخزانة المهترئة. «شيء مهم جدا، جدا!» يؤكّد مشعل. يصعد مشعل على كرسي، يحاول، لكنّ يداه لا تصلان. الكرات غارت إلى آخر الخزانة قرب الحائط.

لا يجد الفاتح مفرّا سوى أن يحمل مشعل على كتفيه. يبدوان كبهلوانين متدربين، يهوي مشعل بنفسه على سطح الخزانة

المُتربة، وبحركات عاجلة يسقط الكرات التي استودعها علية الخزانة.

يغرق الاثنان في سعال مر. وحين تخف وطأته، يجعل الفاتح ينظر بذهول إلى الجوارب المكتّلة التي أصر مشعل على إنزالها. «ما ظننتك قذرا إلى هذا الحد، ولا بخيلا أيضا! أما كان يمكنك أن تغادر دون أن تأخذ معك هذه الجوارب المُنتنة؟!»

يكركر مشعل، يعمد إلى فتح الكرات، ويستخرج منها النقود الملفوفة. ويقول بجدية ممزوجة بضحكة مكتومة تتفلّت من قسمات وجهه: «لو استولى عليها أي لص، فإنها كان سيلقى جزاءه العادل ويموت اختناقا! لعلّ الفراعنة كانوا يقتلون المتطفّلين على الحجرات السرية في أهراماتهم بهذه الطريقة.» يأتي مشعل بكيس بلاستيكي، ويودع المبلغ فيه، ويرشّه بسخاء بالعطر.

«اسمع يا فاتح، سأعتمد عليك تماما! هذا المبلغ استأمنني عليه رجل طيب، وهو هدية من أهل الخير في الكويت. يجب أن تبني به خلوة!»

يُشده الفاتح، يلاحظ مشعل ارتباكه، فيدس الكيس فيه يده بقوة

ثم يمازحه: «لا تنس أن تزودني بالصور!» تمر بضع ثوان قبل أن يتدارك الفاتح شعثه، يرد بفكاهة مخلوطة بنقائض من الجسارة والخشية والدهشة: «هذا إذا حصلت على هاتف هنا، وتوفّرت خدمة الإنترنت!» يمسكه مشعل من كتفيه: «أنت الرجل الآن! فليفخرْ بك أبوك.»

يدسّ مشعل جواز سفره في جيبه، يهمّ بالانصراف، يتذكر: «آه، بقي شيء. لم أصادف أيّ تماسيح في رحلتي. كنت عاهدت صحبي على صرعها!» ما يزال ذهن الفاتح عالقا في الوصية التي أوثقها مشعل به: «لن أعود إلى كسلا إلا حينما أنجز الخلوة. أعدك!»

يتعانقان، يتوادعان، ويتذكّر الفاتح متأخرا ما قاله مشعل عن التماسيح، فيداعبه: «التماسيح. خسارة أنّا لم نصادف أيا منها. إذًا، فلتقلْ التمساح الذي في داخلك يا زول!» يكركران.

زمان الفيض

«ينخلع قلبك، يطيش عقلك، ترى أخيرا وجهك هناك. تقرّر اللحاق به!»

(روعة)

(١)

في الطائرة، من أديس أبابا إلى الكويت.

تدسُّ روعة سماعتي الهاتف في أذنيها آملة أن تشكِّلا حائلا بينها وبين ما حولها. تريد أن تنصت لصوت الصمت، ففي حضرته وحده يمكنها أن تكتب. تضع حاسوبها المحمول على الطاولة اللصيقة أمامها. تخرج من حقيبتها قصاصات كثيرة مضحكة الشكل كتبت عليها مختصر يومياتها. كتبت على أوراق الفندق الرسمية، وعلى فواتير المطاعم، وعلى بعض المحارم الورقية المقوّاة. أحيانا كانت تكتب على ظاهر يدها إلى أن تتوفر لها قصاصة تنقل عليها ما تريد. يُقهقرها قليلا التفكيرُ حول ماذا ستفعل فيما ستكتبه، وأين ستنشره، ومن القرّاء و... تنفِض عنها هذه الأفكار الجالبة للشلل، تقرر أن تكتب وحسب.

تشوش عليها الشاشة المثبتة على المقعد أمامها. ترفع سبابتها تلقاءها كي تغلقها، فتقع عيناها على خريطة الرحلة تملأ الشاشة. تظهر خريطة عامة لإفريقيا، تضيق، وتضيق حتى تظهر المناطق

التي ستمر عليها الطائرة. تمد روعة إصبعها برفق، تلمس الشاشة، وتنثال من قلبها أشياء تترى. تنحّي القصاصات، تفتح دفة حاسوبها، تُفيض عليه مما أفاضه الله عليها.

أوّل المسير

أراكَ هناك، تمشي في طريق مرصوفة بالخضرة الداكنة. تطأ بقدميك السهوب القاسية، قدميك اللتين عليك أن توليهما عناية بعد أن دبّ السكري في جسدك منذ زمن طويل، بيد أنّك لا تأبه كثيرا، كما لو كنت تعيش خارج إطار ذا الجسد. الجسد الذي تعرّض لإطلاق النار، ونجا من لغم في الحرب الأهلية في موزنبيق، وحصار كوبرا، ولدغات لا تحصى للبعوض، وسفعات متواترة من الشمس. جسد يسكنه دم يأبى ضغطه إلا العلو، وكأنّه يتأسى بصاحبه. جسد ألمّت به الجلطات في الساق والقلب والدماغ. تضرب الأرض بعصاك، تضع عليها شيئا من ثقل جسدك، وشيئا يسيرا من ثقل قلبك. عصا كعصاك يوم كنت في الخامسة. تلك التي كنت تبيّتها بجانبك، وفي النهار كنت تصيّرها عصا سحرية

لخيالك؛ تنقلك إلى الغاب، وتقتحم بها الآجام، وتصيد الأفاعي.

أراك تارة أخرى، في شبابك. تفترش الأرض مع رفاقك، تخططون، تجمعون من مصروفكم اليومي، تؤثرون على أنفسكم. تقفون مبتهجين، ها قد جاءت السيارة أخيرا. عجبا! لا تعتريك ورفاقك نزعة طائشة لقيادتها برعونة كما يود أي مراهق أن يفعل. تسخّرونها لنقل العمال من بيوتهم إلى مقار أعمالهم دون مقابل، مخففين عنهم مساوف طوال تحت أُوار الشمس.

إلى أين سيذهب بعد الثانوية هذا المشغوف بالكشافة صبيا؟ تتجه إلى بغداد لتدرس الطب. ولِمَ بغداد؟ لأنّ هناك من استفزّ طموحك الذي لا يهدأ وقال لك إنّ الدراسة فيها أصعب من غيرها. هناك، تكتفي في معظم أيامك بوجبة واحدة في اليوم. ليس لأنك لا تملك ثمنها، ولكن لأن لك قلبا قلوقا على من لا يملكون ثمنها، كيف يعيشون؟ وبم يشعرون؟ تظل مسكونا بهموم عظمى. تنشط في المسجد، يتحلّق الناس حولك، تُودع السجن، تكاد تعدم، تخرج بأعجوبة.

ميثاق

وحينما حان وقت زواجك، اختار الله لك عروسا مثلك؛ قلب شفيف، وأفق أغرّ. تغادران إلى ليڤربول البريطانية، حيث تكمل دراستك. كيف يحدث أن تقرر التخصص في «أمراض المناطق الحارّة»؟ وما حاجة الكويت إلى هذا التخصص الذي لا يفيد إلا الدول المتخلّفة المنكوبة بمناخها الحار أو الاستوائي؟ طب الكوليرا والملاريا واللشمانيا والمستنقعات والبعوض وذباب تسي تسي. لا يدري أحد بعد ما تلك القوة التي جعلت قلبك يهفو إلى هذا التخصص المجنون.

تغادر إلى كندا، لتدرس في جامعة ماگل العريقة، تمضي هناك سنوات ثمان. تدرس الأمراض الباطنية وأمراض الجهاز الهضمي. تعود إلى بريطانيا مجددا، تمضي سنتين في لندن تجري أبحاثا عن سرطان الكبد. أنفقت قرابة عشرين سنة وأنت تدرس الطب، المستقبل كله أمامك الآن، مستقبل لامع جدا. يحين موعد العودة إلى الكويت، تصارحكَ زوجُك: «وجهك ليس بوجه طبيب!»

١٩٨٠

تُفاتحك بالفكرة المجنونة: «نذهب إلى جنوب شرق آسيا، تداوي أنت المحتاجين، وأنا أدرّسهم!» فكرة طوباوية، فكرة مجنونة ... فكرة مؤجّلة.

تعود إلى الكويت، تنخرط في العمل في مستشفى الصباح، وصفحة وجهك الذي ليس وجه طبيب تطفو أمامك. تلحّ على وزير الأوقاف بزياراتك، تبحث عنده عن طريق لفكرة زوجتك. المفارقة أنّك تجد الباب مفتوحا، والطريق مغلَّقة!

«وجه من هو؟» تجعل تسأل نفسك، ويأتيك الجواب قَدَرا. «أمر علي» امرأة تطلب منك ومن اثنين من صحبك أن تبنوا لها مسجدا. تتفقون على الذهاب إلى ملاوي دون أن تعرفوا ما ينتظركم. هناك، تتعلم أول دروس فقد الدهشة! أئمة مساجد لا يعرفون الفاتحة، وشعب يسمّى أبناؤه المسلمين «ألا ساري» أو المتخلّفين. ينخلع قلبك، يطيش عقلك، ترى أخيرا وجهك هناك. تقرر اللحاق به!

عَوْد بطعم الرحيل

١٩٨١

تعود إلى الكويت مفتونا بحلمك. تستمر طبيبا في مستشفى الصباح. تؤسس «لجنة مسلمي ملاوي» التي تستضيفها إحدى الجمعيات الإسلامية في الكويت تحت جناحها. تستمر في الطب سنتين، ثم تزمع الرحيل لتتخصص تخصصا دقيقا ونادرا؛ طب تطبيب القلوب الجريحة! تهاجر إلى ملاوي. تتلمّس أوجاع القارة المنكوبة لا ملاوي وحدها، فتغيّر بعد عام اسم اللجنة إلى «لجنة مسلمي إفريقيا».

هنا، صار لزاما أن تتعلم أول دروس كسر المنطق؛ لا تعوّلْ على الموسرين! يقول المنطق إن مشاكل العالم ستُحل إذا أخذنا من أغنيائه ووهبنا فقراءَه. تكتشف أن «إذا» في واقع الحال هي «لو». وبالتجربة تكتشف أن عليك أن تعوّل على نساء الطبقة الوسطى. يبدو الأمر مثيرا لأقصى درجات العجب، عجب سيزداد في كل يوم من حياتك الجديدة. لهذا

قالوا إن التطور والتغيير يأتي من الطبقة الوسطى، فلا هي مكدودة عن السعي مثل الطبقة الدنيا التي لا تفكر إلا في قُوتها، وليست مترفة متخمة عن التغيير تخشاه كأختها الثرية. هي وسط بين رذيلتين.

بزوغ البطل

تمر الثمانينات عصيبة. تنتشر العبارة: «مَن يمسح دمعة هذا المسكين؟» يدقّ الجفاف إفريقيا، فتغدو أنت بطلها. فجأة، يبدأ الناس يكتشفون أن لهم إخوة في الدين في قارة يضربها العوز والسقم والتخلف. تضع إفريقيا في وجدان المسلمين بشكل لا تفعله حتى أعتى وزارات الإعلام مجتمعة.

تفني زهرة كهولتك هناك. يهرب أبناؤك منك حين تزور الكويت، يظنونك رجلا غريبا! وحينما يعتادون عليك تغادر لتعود إليهم في وقت يكونون قد نسوك.

أغسطس، ١٩٩٠

حدث أن الأخ هو من جاء بالهيجاء إلى عقر دار أخيه.

وحدث أن الأخ هو السلاح المغروز في خاصرة أخيه.

تعود إلى بغداد حيث درست الطب، تعود سجينا. ما الجديد؟ ليست المرة الأولى، بيد أنّ هذه مختلفة. يبدأ التعذيب الممنهج، يُقتلع لحم وجهك وجسدك، أما قلبك فمعلّق بالمساكين. تتوق للنجاة لا تبرما من التعذيب، بل لأن عذاب قلقك على تلك النفوس أثقل من لحمك الذي ينتف.

ترفع روعة دفترها من على الطاولة. تحلّ محلّه صينية الطعام. كانت على وشك أن تأمر المضيفة أن تُرجع الوجبة، لكن منظر الجبن الذي يزيّن السلطة يقدح زنادها. تتذكر ما سمعت. تسرط الطعام على عجل، وتسلم الصينية إلى أول مضيف يمر بجانبها.

الجبن، الجبن يا رجل! حرمت نفسك منه سنوات. الجبن اللذيذ الغني، أحد متع الحياة. كم نوعا للجبن في فرنسا؟ هناك حيث يُعد الجبن نوعا من التحلية. أما أنت فقد حرّمتها على نفسك حينما كنت تدرس في الخارج خوفا من حرمة أنفحتها. يأتيك الجواب بعد سنوات بجواز ذلك، تبيح لأبنائك أن يأكلوها، لكنك تظل تحرّمها على نفسك تُقاة الشبهات. من يطيق ما تطيق؟

١٩٩٤

تهبطُ في مدغشقر. وفي تلك الجزيرة تبدأ مغامرة السندباد، تكتب أسفار «ألف ليلة وليلة» جديدة: سِفر الوجع، وسفر العَجَب، وسفر المُضِيّ.

تعبر مساوف بسيارة مهترئة، تخوض في نهر تسكنه التماسيح، تقطع مستنقعا مجللا بروث الأبقار، يحيق بك البعوض والنتانة واحتمالات الملاريا والكوليرا وأسقام أكثر من أن تُحصى، وبعد أربع ساعات من العذاب تصل إلى «مكّة»!

مكّة الـ«أنتيمور»، ستتكلم عن هذا الاسم كثيرا. ستطيل الحديث بشغف لكل من ترى عن أولئك القوم الذين يقولون إنّ أجدادهم جاؤوا من مكة، مكة الأسطورية التي لا يعرفون سوى أنّها في مكان ما من الشمال الفسيح. ستتكلم كثيرا عن أولئك القوم المُضحكين المُبكين الذين حين سألتهم عن دينهم فقالوا إنهم «مسلمون پروتستانت»!

أطلعوك على الـ«سورابي» كتابهم العظيم المكتوب

بالحرف العربي! آيات قرآنية، وطلاسم غريبة، وشعوذات، مكتوبة على ورق يصنع محليّا. تعجب من «المسلمين البروتستانت» الذين تطغى عليهم الوثنية بيد أنّهم لا يقربون الخنزير، ولهم كتاب لا يفهمون لغته، وتعج لغتهم بكلمات عربية واضحة ابتداء من أسماء الأسبوع وانتهاء بأسماء أجدادهم التي تطابق أسماء بعض الصحابة.

وإن كنت رأيت «مكة» لدى الأنتمور، ففي «ماجونگا» المدغشقرية ترى عجبا أكبر، ترى الكعبة! ترى أهل القرية وقد بنوا كعبة يطوّفون بها كل عام سبعة أشواط، لا يرتدون المخيط، ويختمون حجهم بنحر ذبائحهم! أسموها «دوعاني»؛ بيت الدعاء.

تشعر بأن السِفر يعظم، وأن حكايات شهرزاد يجب أن تصمت، فلتحل هذه الحكايات العجائبية محلها. حكايات تحدث أمامك، ولا تصدّقها. تقرر الاستقرار في مدغشقر، تمضي سنتين ونصف هنا، بيد أنّ الحاسدين يوغرون صدور ساسة مدغشقر عليك، فتُخرجك المضايقات من أرض أحببتها وأحبّتك.

فِتَن

تأتيك «أم مِلدم» زائرة. تقبقب، ينخز الألم مفاصلك، تعرفها، تعرفها جيدا، ليست هذه زيارتها الأولى. لكن هذه زيارة مغرضة، جاءت كيما توسوس لك، كيما تغريك أن تمد يدك تلتقم قرصا من الدواء الذي حرّزته في جيبك. تتأبى، تستبسل في الممانعة.

تطول زيارتها، تخور قواك، تجعل تهذي، يخاف عليك قومك، يستنجدون بممرض ليخبرهم ما كنتَ تعرفُه سلفا «هي الملاريا». حين يعلم مقامك لدى قومك من جهة، وقائمة الأمراض التي استوطنتك من جهة أخرى، يرفع يديه وينصح للقوم أن يستأجروا طائرة صغيرة تقلّك إلى العاصمة. تستفيق من نوبة الحمى؛ طائرة خاصة؟ رحلة تكلف خمسة آلاف دولار، ماذا يمكن أن يُبنى بالآلاف الخمسة هذه؟ كم روحا يمكن أن تنقذ؟ كم بطنا يمكن أن يملأ، كم، كم، ... تفزع من رقدتك، تمد يدك إلى جيبك، تتناول بضعة أقراص، تتعافى بعد بضع ساعات. لكن يظل الذنب يعتصرك. كنت قد نذرت تلك الأقراص لغيرك.

١٩٩٦

٧٥٠ ألف ريال سعودي. يبدأ عقلك حساباته. لم تكن تفكر فيما ستقوله للصحافة في الحفل، ولا في مشيتك على المنصة، ولا في البشت الذي ستضعه على كتفيك في الحفل المهيب. كنت تفكّر كيف يمكن أن تنفق مبلغ الجائزة السخية، جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام.

تتذكر فعل زوجتك التي -وببساطة تامة- ذهبت تصدّق بإرثها كاملا لإفريقيا. انسيابية فعلها أدهشتك وأنعشتك، لم تحاول أن تعرف حتى كم الإرث الذي آثرت غيرها به على نفسها. ولأنّكما تنهلان من النبع نفسه، ما كان لفعلك أن يختلف عن فعلها. لا يرقد مبلغ الجائزة في حسابك كثيرا، رقوده هناك فتنة. تسرع بوضعه في وقف خيري لإفريقيا. تكبر السنبلة، تستوي على سوقها، تخرج شطأها، تتدلى السنابل الناعمة منها، سنبلة، اثنتان، ثلاث، أربع، ...

تجعل روعة تعد السنابل في سرها، فيخطفها النعاس. في أحضان النوم السطحي التي كانت تحاول الإفلات منه تتسرب إليها الأرقام التي نقلتها من الإنترنت وحفظتها على حاسوبها.

ترى فيما يرى النائم شجرةً عظيمة تناطح الغمام. تحار، يقلقها أمر تلك الشجرة التي لها شكل السنبلة، لكنها عتيدة وموغلة في الأرض بغرائبية، وشاهقة إلى الأعلى بمهابة.

تتدلى من الشجرة الغامضة ثمار غريبة. تدنو روعة، تتدلّى قطرات ماء ماسية، آبار تفيض عذوبة! الآبار، تعدها روعة بومضة واحدة ٢٧٥٠ بئرا. هي شجرة الآبار! تدنو أكثر، فتلمح عناقيد، وتلمح في العناقيد وجوه الأيتام، تحاول إحصاءها فتفشل. تقترب لترى مآذن صغيرة وأهلّة ذهبية لامعة، تعدّها روعة، ١٢٠٠. تتوقف حين ترى ثمارا غريبة تذوي ثم تبلّ، ١٢٤ مستشفى. تجد روعة ميزانا في يسراها، فتجعل تقطف طرودا منمنمة تنتأ على لحاء الشجرة العجيبة، تقطف بسرعة غرائبية، ١٦٠ ألف طن يخبرها الميزان ناطقا. يحملها الفضول أن تفتح أحد الطرود الصغيرة الشبيهة بثمرة المشمش، منها يتفجّر الزاد والكساء والدواء.

يخفق قلبها حينما تهتز الشجرة، تنفض نفسها عن نفسها، وتورق ثمارا جديدة. تسري نشوة فاتنة في صدر روعة، كتب صغيرة تنبت على أفنان الشجرة المذهلة. تكركر روعة وهي تقطف الكتب، تكوّمها صانعة منها تلة تغري بالالتهام، تلة من ٦٠٠ مليون كتاب! تتفتق من الكتب ألسنة عجيبة، تتراءى لها بابل في أحرفها.

مفتونة بالتلة العظيمة، يختلبها نور مغاير، شيء لم يُرَ مثله في يقظة أو منام، لا في عالم الإنس ولا الجان، نقاط من نور تتوهج على الشجرة-الأم. تهفو روعة إليها كفراشة مغرمة بالنور. تحوم، تحوم، يعيل صبرها، تختطف قبسا من الـ٥١ مليون قبس التي تزدان بها شجرة النور. تدغدغ بقعة النور بيديها، ينبلج منها مصحف. نور على نور، نور يحجبها عن رؤية ما سواه. لا ترى في هذه اللحظة سوى القلب مغلّفا بالنور مغتبطا. ملايين من الأناسيّ يحيطون بالشجرة الرحمانية، نُجَاةً من الجوع، والعوز، والضلال.

مطبّ هوائي يعتور الطائرة، تتناثر الثمار على وجه روعة، تهزّ رأسها جذلى. تستفيق، تتلمّظ، ترفع كتفيها بمرح.

(٢)

في الطائرة، من أديس أبابا إلى الكويت.

الساعة الواحدة ليلا في الطائرة. تُغلق الأضواء، تغفو الطائرة ما عدا بقعتين أشعلتا المصابيح العلوية. المقعد 13F حيث تجلس روعة تكتب، «تكلّم الموتى» كما يقول شقيقها. والمقعد 7D حيث يجلس معاذ، يتأمّل قصاصاته ويعيد كتابتها بخط ليس كخط الأطباء بل أسوأ، خط الشعراء الذين التفتوا لنداء موهبتهم متأخرا.

يفكّر معاذ ماذا سيسمّي ديوانه الشعري الأول؟ تطوّح به الفكرة الشقية، يخفي ضحكته الساخرة خوفا من إيقاظ النيام، يكتب اسم الديوان بخط مهتزّ بفعل ضحكته المكتومة: «كلام غير نافع». يزمع أن يصدّر الإهداء: «إلى كل أولئك الذين زعموا أن الطب والشعر لا يجتمعان!»

تمّت

الدوامة الناعمة التي سحبته البارحة في منامه قذفت في قلبه التصديق بما جاء به الجار الكفيف؛ أتاه قبل وفاة عمه بساعات يخبره بأن فاجعة ستحل، لكنه سيمضي في عزم له. قال له إنّه سيبني دار قرآن في دارفور! لم يصدق مشعل ما سمع، فقال مازحا: «كارفور؟» ملامح وجه الرجل الهرِم الجادّة كانت كفيلة بالرد. ثم ناوله ظرفا يحتوي على خمسة آلاف دينار تكلفةَ الإنشاء. حينما سأله مشعل عن مصدر معلوماته، قال ببساطة: «رؤيا.» «لماذا دارفور تحديدا؟» سأل مشعل أبا مشاري الذي حكّ لحيته المخضّبة ثمّ أجاب باستخفاف: «وما أدراني؟ مهمتك أنت أن تكتشف ذلك!»

حيـاة الياقـوت

- كاتبة كويتيّة وُلدت عام ١٩٨١ م.
- حصلت على الإجازة الجامعيّة في العلوم السياسيّة واللغة الإنكليزيّة عام ٢٠٠٢، وعلى الماجستير في علوم المكتبات والمعلومات عام ٢٠٠٤ بتفوّق من جامعة الكويت.
- مؤسّسَة ورئيسة تحرير دار ناشري للنشر الإلكترونيّ.
- عضوة في رابطة الأدباء الكويتيين، وعضوة سابقة في مجلس إدارة الرابطة، وأمينة السر السابقة لها.
- صدر لها ١٧ مؤلَّفا في مجال الرواية، والقصة القصيرة، وأدب الطفل، وحقوق المرأة.

9 789921 028805